درب البرابرة

إلى

إيمان زكريا

وكفى

كل ذلك لا يهم

لا يهم أن أعيش أو أموتْ
المهم أنني قد مررت بهذا الشارع أو ذاكْ
واشتهيت هذه المرأة أو تلك
ذات مرةٍ
لعبت – أنا والقمر – لعبة الاستغماية هذه
خلف بوابة قصر مهجور
أدخلت النجوم إلى بيتيْ
وغسَّلت لها رأسها الملآن
بالدمامِلِ والقملْ
ضحكت أنا والوردة خلف بستان شائخ
كطفلين عاشقين
وعلى مرأى ومسمع من النجومْ
بكيت ليلةً بكاملها فوق ترعةٍ مهجورة
ودون إذن من الضفادعْ
رقدت على الأرض المبلولة وأدخلت يدي
في سُرَّتها
حتى قهقهتْ
وكشفت لي عن سروالها العجوزْ
صعدت إلى كافورةٍ ناشفةٍ
في الظهيرة القوية
وغنيت فوقها لألف عامٍ على الأقلْ
فردتُ صدري للريحِ وقلتُ :
انطلقي يا سحابة باتجاه الموسيقا
طبطبتُ على رأس أمي مرتين وقبل أن تموتْ
سرقتُ سنبلة من القمح من حقل جارنا المناور
وشويتها على المجرى الدمعي للخلايا
وأكلتها فوق حصيرةٍ مجهَّلةٍ

توضأت بالفجر
حتى نامت الشمس في حجريْ
وقالت لي :
أرجوكْ
احكِ لي بقية الحكايةْ
عن الليلة الأخيرة في حياة النبي سليمان
وكلب أهل الكهف
وعليقة الطورْ
وما الذي قاله يوحنا المعمدانْ
على نهر الأردن
أمام جسد سالومي الجميلة
أنا المسافر الأبدي في الدروب الوعرة للعالم
رأيت الليل يمشي بجواري في السكك
ويتنطط على المعابر
وخلف البواباتْ
وينام معي على الأرصفة في البرد
وعلى نفس المقعد يتناول طعام إفطارهِ
ويترك لي بقيةً من خبزه الحافي
وبعضـًا من علب السجائر
وعصير الليمون
والتي ألفها على الرسغين الأبيضين
لفلكك الدوّار
أنا الذي رفعتُ صوتي بالغناءِ
إلى أن أزهرتْ الميتافيزيقا
فوق الجدران
والقواميس
لا يهم
لا يهم بعد ذلك
أن أعيش أو أموتْ.

الراعي الصالح

لقد أتيح لي
أن أرى السماء وهي تتفسخ مثل ورقة كرنبْ
أو مومسٍ تنعظ
أن أرى الأرض وهي تتنقل من قارةٍ إلى قارةٍ
مثل كرة من البلياردو
وهي معلقة في رقبة فأر ضالْ
أن أنعس قليلاً على العشب المبلول
وفي فمي فراشة ضالة
وقدميّ تغوصان في الوحل
أو في عين الشمس الحمئة لا فرقْ
أن أرى الميتافيزيقا وهي تتنفس هواءً مجروحـًا
فوق صينية من اللحم الإنساني المفرومْ
على الرصيف المقابل
للعالم الحيّ
والعالم الميت على حدٍّ سواء
ودون أن تشعر حتى بالضجر أو اليأسْ
أن أرى البحر
وهو يدوس على أمعاء صديقه الرملْ
عاريـًا
ووحيداً
بقدميه الصفيحيتين المتوحشتين
ولا يعود إلا بسروالٍ جاف
وبضع سمكات في الفمْ
أن أسمع حبات الكركم وهي تحدق إلى رأسي المشجوج
بفأس الزمن الباردة
وبعينين سوداوين تطقان شرراً
أو حتفـًا

لا يهمْ
أمام مئذنة ملطومةٍ
بسبع سنابل سوداءْ
وخنفساء جاحدة
أن أبحث عن المستقبل المنظور أو اللامنظور
فوق رقعة شطرنجٍ
لا يحرسها سوى الكلابِ والقطط
وكرتونات العدم الراسخةِ
من فوق أسوار البورصات العالميةِ
وبالوعات العولمة الواسعةِ
واقتصاد السوق
وحشرجات رأس المال في الزكائب العالميةِ
للخرابِ
أن أؤرجح الريح على ساقين خشبيتين
بجوار قمر ضال يفتش عن الليلِ في الليلِ
خلف عربة روبابيكيا
وفي يده زكيبة من الجماجم المهروسة
في مدرسة الذباب الأعمى
أنا مر بي الزمن الضائع في حديقة الخراتيت هذه
في رحلةٍ مكوكية ما بين الأرض والسماءْ
فوق خرائب التاريخ النارنجاني
وأسس الجغرافيا المشروخةْ
أنا سائق العربة الخرقاء ذات العجلة الواحدة في هذا العالم
والتي يقودها الجنون من المساء حتى الصباح
ومن الصباح حتى المساءْ
من فرط ما استهلكتُ من خساراتٍ
على المقاهي الباردةِ

وقطارات الضواحي الليلية الجافة
وفي فمي
عدة أرغفة من نحاسٍ
على ساحل الجحيم المنتظر!!
ما الذي تريدون – مني – أن أفعله يا أبناء الأفاعي
في مدرسة الخنازير الوسخة هذه
سوى أن أقدم لها المن والسلوى
على طبق من أركيولوجيا البطاطس
واللفت
وبضع سيمفونيات رائعة بحجم نباتات الزينة
والدم الذي يسيل في السكك
ويغزو النوافذ
تحت سماءٍ لا ترى
أو تسمعُ
أو تحسُّ
لتجلس عليها وفي نهاية اليوم الفائت لكي تمصّ القصب
أو تقزقز اللب
من فوق رؤوسنا
أو من تحت بطانياتنا المهددةِ بالتلفِ
نحن نشارة التاريخ
ومخزن الجغرافيا العتيد !!
ما الذي تريدون – مني – أن أفعله أنا العاطل عن العمل دائمـًا
والفائض عن الحاجة أحيانـًا
سوى أن أجرجر السماء من بنطلوناتها الخلفية المرقعةِ
إلى حقلٍ مجاورٍ
من الأسلاك الشائكة
وألفها في بطانية من خراء القطط والكلاب
لأشعل في فمها النيرانْ

وأبيعها – هناك – على الأرصفةِ
والمعدات
مثل بيضةٍ فاسدةٍ
أو مخلفات حربٍ كونيةٍ قادمةٍ
أنا الراعي الصالح
لكل هذا الألم الإنساني المضاعف
والذي يجري على الأرصفةِ
ويتنطط في عربات الطوارئ
وغرف العناية المركزةِ
ولا يبصُّ على العالم
إلا بعينين زائغتين
وقلب لا يعمل إلا على طبقٍ
من النوستالوجيا
لقد استهلكت أمعائي في الضحكِ لحدّ البكاء
وفي البكاء لحد الضحك
لا فرقْ
لا فرق
كل ذلك تحت شجرة سرو ضريرةٍ
في حراسةِ الريح المعتوهةِ
وأمام صندلٍ معوّجٍ
إنسانيـًا
أو لا إنسانيـًا
سوف يمرّ هذا اليوم
كاليوم السابق عليه تمامـًا
ثم لا شيء
لا شيء
لا شيء.

الضمير معلقـًا على جذع شجرة

سوفوكليسْ

اسخيليوس العجوز

أفلاطون المناور الأبكم الذي تلقّى تعليمه الأساسي في مدرسة الإسكندرية

أفلوطين الهرُّ الأشيب للعَرَضِ والجوهرْ

شكسبير المناور وصاحب السونيتات الأغرّ

هيراقليطس الأعمى

رامبو الجوّال الأبدي في بنسيون التاريخ

سينيكا الأخرق

صاحب الحانة الوحيدة

في مزبلة روما

تلك على الأقل

هي المعالم الرئيسية للحضارة الغربية أو قل

هي النغمة الأساسية على صفحة البيانو

في سيمفونية الغرب الحديث

1- بيتهوفن الأشقر الأصم

2- سبيلبرج العبقري المتعجرف

والذي يكره أمريكا في الصباح

ويحب البيتزا المحشوة بشرائح الهنود الحمر

في المساءْ

والحارس الليلي للنمل والبعوضِ

في محلات المكادونالدز

الأمريكية

3- يهوه

ذلك الإله الجبار القاسي والذي ترك

شعبه الأثير

في العراء

والبرد

لمدةٍ لا تقل عن أربعين سنة
في صحراء قاحلة
ومتوحشةٍ
تسمى سيناء
وحين وعدهم بالمن
والسلوى
كان ذلك على حساب تلّ من الجماجم
والجثث فوق صحراء لا تعرف الرحمة أبداً.

رجل ببنطلون مرقّع

هأنذا
أكتب أغنيتي الأخيرة تحت مصباح شاحب
ويمتلئ بالكوابيسْ
أفتش في السماء الزرقاء عن غيمة وتشبه الحليبْ
أشبك صنارات الوحدة في سمكة البوتاسيوم
وأعد السنوات المجدبة على طرف منجل
حتى الحروف
الحروف التي كنت أحسبها ذات يوم صديقتي وتشعر بالحرية
والكلمات التي كنت أرصها في جيبي وتحت مخداتي
في غرف النوم
لتؤدي لي تحية الصباح كل يوم
صارت هي الأخرى مشابك وفلّايات
خذي شعب المرجان هذه أيتها الريح وارحلي
ارحلي عن هذه الأرض المملوءة بالمطبات
والحفرْ
فلم يعد هناك سوى مقبرة واحدة
تضم الأرض والسماء جنبًا إلى جنب في بنطلون مرقع
صهٍ صهٍ

أيتها الأشعار يا عدوتي اللدودة!!
ما عاد بي إحساس أو حتى رغبة في الفعل أو اللافعل
تحت مقودِ هذه السماء الملطومةِ
يقف رجل وحيد ببنطلون مرقع
وفي فمه فراشة ميتة
وعلى كتفيه ترفرف طيور العدم
الهَرِمة!!

نم أيها الليل

نم أيها الليل
نمْ
فلا يد هنالك لتطرق البابْ
ولا مطرقة بين يديك لتنعس على بابها
في انتظار أن يفتحوا لك النوافذْ
فقط
ثمة نجمة سهرانة تكتب بأسنانها اللامعة
تواريخ عزلتك
أنت أيها المنجمي
المنحني على كلماتك مثل ناسكٍ عجوز
يتأمل السماء وهي تتفكّك
فيما يخلع الليل آخر أرديته الصوفية
وكلماته
ليلقي بها إلى الهاوية
ولا ينتظر ولو سمكة جانحةً في فم الشاطئ
ليلقي إليها بتحياته المعلَّبة
ومواويله التي تشبه الزنزلختْ
نم أيها الليل

نم
في حرامك الصوفي
على ضوء المشاعل التي يوقدونها لك
حتى لا تجنح بك السفينة
إلى شاطئ يكتظ
بالأفاعي والقطط.

يا لسخونة الأمطار

كثيرة هي البحار التي لم أزرها في الليل
كثيرة هي السكك التي لم أمش عليها بمفردي
لأغني أنا والقمر كصديقين قديمين
كثيرات هن النساء اللواتي أحببتهن واخترعتهن
حتى انجرح قلبي
وانبثقت الدموع حارةً
وحارقةً
حتى من النخاع الشوكي للخلايا
كثيرة هي الأحلام التي ظلت تطاردني
لأكثر من خمسين عامًا على الأقل
حتى تفصد الحزن من المخيلةْ
كثيرة هي الليالي المفعمة بالأمل والنعمة مثل خليةٍ من العسل
وحينما حاولت أن أقترب
لم أجد غير سلةٍ من الإبرْ
كثيرة هي الخيبات التي لاحقتني وملأت جلابيبي
حتى النخاع
وتفرعت على الطرق مثل جميزة ناشفةٍ
وعندما كنت أجوع
لم أجد غير خبز الدموع المحمرِّ

يا لسخونة الأمطار التي تعمل بداخلي
ومنذ أن ولدتُ !!

وداعـًا

وداعـًا للكلمات التي أحبها بعمق
للموسيقا التي تمشي على قدمين حافيتين وتنام على العشب في ساعة الظهيرة
للزمن الذي يركض على قارعة الطريق ولا يتوقف إلا أمام بوابة مقبره
للحياة التي تقف على بوابة فجر ولا تستنشق إلا رائحة المستشفيات
وغرف العناية المركزة
للعصافير التي لا تغني إلا على بوابة السجون والمعتقلات
للطيور التي تعزف الضوء بمفردها على عجلة الأبديةِ
للأنهار التي لا تلبس إلا قبعة البحر وتسافر
في عربة روبابيكيا
للتماثيل التي تستقيلُ من العتمة وتتفرغُ للظهيرة
للسيمفونيات التي يكتبها الزمن
على رقعة من نحاس معقوف
ولا يتركها إلا في الميادين العامة
وغرف الولادة المقفرة
وداعـًا لفانتازيا الألم
وحكاية الضفادع الأريستوفانية
وداعـًا لكل تلك الحيوانات المرئية واللامرئية
والتي أشبكها خلف ظهري لأعلقها هناك
على حبل غسيل لتجف
أنا المسافر الأبدي في القطار الدولي السريع الذي يقطع الزمن
من أقصى نقطة في المخيلةِ
إلى آخر قطرةٍ
في المحيط!!

عين ترقب

في الظهيرة
لا توجد كلمات
فقط
عين ترقب
وظل!!
في حديقتي تولد الريح سوداء
هذا الجسد ينبت كأسطوانة أعلى الردفين
ساقيتك معطلةْ
وأنا أكنس كلماتي من على الطاولة التي فرت من الجحيمْ
قمر وحيد
يقف في الظلمة
بأصابعي البردانة هذه لا أعرف كيف أكتب عن الأمل
والبحر
عينيّ تعرفان جيداً أين يكمن الفجر المبقور
صدري لا يتسع إلا لقيثارةٍ
وشمسْ
والآن يا حبيبتي
ماذا يفعل كل أولئك الطغاة
بشراشرهم التي لا تخدش إلا ضحكة الفجر
الميالةِ ؟!

أنا مشجوج بفأس

تعالْ
لنلعب الحجلة أيها الظلْ
تعالي أيتها السلحفاة لنرقص سويـًا رقصة الفالس الأخيرة
أيها الألم العجوزْ لا تبتئسْ
وتمدد بجانبي على نفس المقعدْ المجاور

لا لتقرأ العالم كطبيعةٍ صامتةٍ وكفى
وإنما لتتأمل الحياة
من شرفة الموتْ
وحتى داخل المسام الأرجوانية للضوءْ
سحقًا لهذا الألم
أنا مشجوج بفأسْ
من قمة الرأس
وحتى سلسلة الظهر
ماذا أفعل في هذا الوقت من الظهيرة
العدوة
أه يا سيمفونيتي التي لم أكتب منها سوى نوتةٍ فارغة
على شريط سكة حديد
لإحدى قطارات الضواحي!!

سمكة الله

على بعد خطوة من الأبدية يقف البحر الأبيض المتوسط
وهو يحمل السماء على كتفيه
مثل سلةٍ من المحار والرملْ
فيما تقف السماء العجوز شاخصةً
وهي تحدق إلى البحر بألاعيبه التي لا تتوقف
وموجه الذي يشبك الزبد
في صناراته الملونةِ
وأراغيلهِ
وهو يزعق على السفن التي تبحر إلى الأعماق
ارجعي
ارجعي
أيتها الملتاثة
يا سمكة الله!!

كافة المرايا

على باب بيتك تركتُ كل شيء
الحكمة والجنون
اليقين والدهشة
الأمل واليأس
عصاي التي أتوكأ عليها وأهش بها على سنواتي الضالةِ
وفحم عذاباتي المحمر
ذكرياتي الحسنة والسيئة
والتي أحملها على كتفي مثل ورمٍ مجفف
أحذيتي القديمة
ومنقولات الشامخة من الخراء والآجرْ
وطرزان آتى المجوفة
أبيات شعري المنقوشة على الحجر
كشجرة بازلاءٍ ناشفة
كلماتي المفحمة على السكك والشوارعِ
كأحشاء مومياوات منسية
صلواتي التي أسردها كل ليلةٍ على الكلاب والقططِ
وفي كل مرةٍ أوسدها عتبة دارك
التي ترقصين فيها بمفردك
ولا تسمحين حتى ولو لظلك أن يتبعك
أيتها المنكوشة الشعر كالسبايا أيتها المحظية الجريحة
وأخيراً وعندما يئستُ
رحت أجرجرُ قدمي مثل ذئب عجوز يبحث عن وليمةٍ باهظةٍ
بين صحراوات يأسٍ
بمواويلْ
فيما راحت شفتك السفلى
تنغِّص عليّ كافة المرايا

ارفع عني هذه الكأس

يا أبتِ
ارفع عني هذه الكأس
أريد أن أنام
أريد أن أحلم بعصفورٍ واحدٍ على شجرةٍ وحيدة
بشمس تتسع للجميع ولا أحدْ
بنهارٍ في فمه غيمة
وعلى كتفيه أغنية
وقوسْ !!
من يمرّ من هنا ولا يبالي
من يدرك عمق الكلمة ولا تتسع أنهاره للضوء
من يسمع كل هذه الضوضاء
ولا يتلفت
على بواباتك اللانهائية يقف العالم مثل قوس قزح مشروخ
على رئة البحرِ في صندلٍ معوج
أيها النهار المنطفئ المضيء تعال إلى جانبيْ
ثمة صحراوات تتمدد وبغزارةٍ في داخل فمي
في أمعائي أربطة جافة ومصباتُ أنهار بأسماك
وأنا أغوص في السراب بنعلين من شراشرْ
وكوابيسَ ضارية
ارفع عني هذه الكأس أرجوك أريد أن أنام
وأنا أحلم وأسترسلُ
أنا حصانك الأعمى فوق رقعة الشطرنج
المجلوة هذه
لا تجعله ينتحر على قمة جبل من النمل
ومثل جرحٍ مفتوحٍ أسهرُ
وتئنّ!!

بقرة

وهكذا
كانوا يدعونها (هـ . ن) في ليالي الظمأ والنسيان
وأنا أدعوها في الملمات
بقرة الله!!
انتظرت ألف سنة ولم تأتِ
فقط
وفي ذات ليلةٍ مُرّةٍ أجهشتُ بالبكاء
فقررتْ أن تزورني في المنام
وتترك على وسادتي الغارقة في الدموع
ضحكتها الخضراءْ
والتي لا تزال تعمل إلى اليوم
ودون حتى أن يمسسها بشر
أنت يا بقرة الرب الرنانةِ
أريد أن
أتحسسك
لا أن أتجسس عليك
في فمي ضحكة
بقمرْ

رائف بهجت

ربما
تكون في أحد الشوارع الجانبية الآن
وأنت تفتش في جيب بنطالك الخلفي عن قرش صاغٍ واحدٍ
لتذهب إلى بيتك الذي في شبرا في آخر النهارْ
أو تشرب القهوة بالحليب والنعناع
على طبقٍ من الفضةِ
وتتكئ برأسك الممتلئ بالكوابيس والأفق

على جناح فراشةٍ واثقة
أو ربما تكون الآن – وكما عودتنا دائمًا – في إحدى مقابر الصدقة
والتي تقف خارج القاهرة كطابور طويل من جنود
المماليك البحرية وقبائل المغول
والتي نسيها الزمن كمخلفات حرب كونية
لتسهر هناك وبمفردك طوال الليل على رصيف السكك الحديدية
في انتظار أن تلحق بقطار السماء الأخير
أو لتعلق في كمِّ سترتك البنية زهرة اللوتس
والتي تركها لك أمل دنقل في مدخل أتيليه القاهرة
وأنت تحمل تحت إبطيك شمعتك الوحيدة الأخيرة
والتي ستسهر عليها بمفردك وأنت تقرأ
الأعمال الكاملة لمالارميه والحلاج وكذلك ابن عربي
فيما يجذبك رامبو التعس من كم جلبابك
ليأخذك إلى البحر في نزهةٍ خلوية
لترى الشمس وهى تحتضن السماء بكلتا يديها المعروقتين
وهو يغني تحت قبة السماء الراسخة ويقول لك:
تلك هي الأبدية أيها الممتعضَ!!

أنا من يخدع الليل

متى نكتب عن كل تلك الصحراوات التي تترامى
بداخلنا إلى ما لا نهايةٍ
عن العطش الذي يجرح الشرايين ويجفف الأوردة
عن الندى الذي يتحول إلى فحم وكمانات
عن اليأس الذي ينمو على الحوافّ دائمًا كأمطارٍ استوائيةٍ
عن الشمس التي تتفحم بازدراءاتٍ وتعزية
أمام صباحاتنا المغطاةِ بالخديعةِ واليأس
لا ، لم يكن كل هذا الذي أريد أن أقول
فقط أريد أن أخترع وردة وتشبه الأمل

أنا من يخدع الليل
حتى عن بصيرتهِ .

في العام 1945

هناك
وفي مخبأ تحت الأرض تمامـًا
وعلى بعد عدة سنتيمترات من البحر
وبضراوةٍ لا مثيل لها يقبع ذلك الجندي المسنُّ روميلْ
بحذائه البوت
ونظارته الشمسية السوداءْ
والبالطو المشبع برصاصات الإنجليز والأمريكانْ
حيث تخيم العناكب التي تزحف ناحية البحر
لتعود وفي آخر كل ليلة وهى محملة بكل تلك الجثث
الطافية في مياه العلمين وفي جوف الأبيض المتوسط
لا
لم يكن الغبار هو سيد الموقف تمامـًا
ولكنها كل تلك البسالة المطفأة العينين هناك على شاطئ روميل
حيث يتجول النسيان بحريةٍ
وهو يبدِّل ثيابه الوسخة بالمجنزرات
والدبابات
والكمامات الواقية من الغازات السامة
ومن خلفه يقف العام 1945
كشاهد ضرير
على قيامةِ الدم
والموت
ولا أثر لوجود السيد
حتى على الطرقْ !!

هلِّلويا

هلِّلويا
لقمرك الذي يتلامع عبر الصحراوات في الليل
هلِّلويا
لشفتيك المدرعتين بالحليب والسُّكّرِ
لأنفك الذي يسكر بمفرده على مائدة الأرَجوانْ
لنهديك القاريتينِ
لسلسة ظهرك التي تخترع النعمة
لكلامك الذي يسهر على طاولةٍ من ماسٍ وحناناتْ
لشعرك الذي يتوج الريح على سلم الأبديةِ
لخطواتك التي تتلاعب مع الفراشاتِ تحت شمس الظهيرة القوية
هلِّلويا
ليديك اللتين تمسكان بعكاز الحكمةِ
وتجرح العطش
لسلامك الذي تخبئه الأنامل على شجرة الطبيعة الحية
ولا يعمل إلا من خلال جسمك المضيء
هلِّلويا
لأيامك التي تخرج من إطار الزمن المدجج بالساعات
إلى زمن آخر لم تعرفه الساعات
لصهريجك الذي يطفح بالعسل واللذةِ
وكلما يريد أن ينتفض تجرحينه بنظراتك الحكيمة
آهِ يا آخر عناقيد الليل
من عنقك الذي يترجرجُ على اللؤلؤِ
وحليب البنفسجاتْ !!

الليلة

الليلة سأستقبل الحياة بشكل آخر يليق بالحياة
حيث تتمدد السماء إلى ما لا نهاية فوق سريريْ

والأرض أدحرجها إلى هذه الناحية أو تلك
من الجسرْ
سأجلس إلى جوار صفصافة عجوزْ
على شاطئ ترعةٍ قديمة
وأغني عن المطر والشمس
عن أبي الذي أخذته الجندرمة
ومات مقتولاً في السجن
عن أمي التي لا تعرف شيئًا عن القراءة أو الكتابة
ولكنها تكلم الله جهراً وأمام التنورْ
ولا تفتش عن عليقة موسى
أو تعرف شيئًا عن طور سيناءْ
عن شعر امرأةٍ أضمها طيلة الليل تحت ثيابي
وأذهب بها بعيداً عن حكمة البحرْ
وفي آخر الليل أنزع عنها ثيابها القطنية
وأقول للسماء الراسخةِ
أيتها السماءْ
ماذا تعرفين عن الوحدةِ
وشرب الشاي بالنشارة فوق بوارج
الصهدْ!!

ها أنت ذا

ها أنت ذا تسهرُ لوحدكْ
مثل هذه الحشرةِ أو تلك
تطارد الأَرَضَةَ التي تعلك جلابيبك
وكشيء زائد عن الحاجة تماماً
تطرد الذباب عن حبل غسيلك
الذي تنشر عليه كلماتك المالحةِ
وأغنياتك التي عفا عليها الزمنْ

تلعب النرد
أنت والوحدة التي تقاسمها الوحدة
على أرضية الشوارع الرثةِ
وتمسك بخيط الشهوة
بين صناراتك التي تعلقها على سقالة الهواء المُلَغَّمِ
لتتحول وفي نهاية الأمر
إلى طبق اصطناعي فوق ترعةٍ جافة
لا يلعب على أرضيتها سوى السمك الميت
وملايين الضفادع البريةِ
فيم تقول للبوص الناشف
أين أنت يا صديقي
الغريق؟

الزمن الكفيف

في سلةٍ جانبية وضعت الزمن مثل طائر الرّخ
وقلت للطبيعة
اجلسي أيتها الطبيعة العريانة فليس غيري وغيرك
من يجلس القرفصاء على هذا المقهى
أو في شوارع الوحدة والنسيان هذه
في سنواتنا المليئة باليأس والضغينة
سوف نرصُّ حجارة السماء الواطئة هذه
في علبة كبريت
أو أنبوبٍ بلاستيكي
لنصعد عليها في أثر فراشةٍ ضالة
تقف هناك عند بوابة السماء الراسخةِ
ولا تجد هناك من يطبطب على كفلها
أو يعطيها تصريحًا للدفن
لا لنطلبَ وردة الله الأجيرة

وإنّما
لنطرق كل تلك الأبواب الثقيلة
للعدم الراسخ
على بوابة الزمن!!

يسوع

تذكرتك وأنا هناك على جبل الزيتونِ أقطف فسائل التمر
وأرعى حدائق المُرّان!!
كانت يديّ ملطختان بالغار
وشعر رأسي عليَّ مثل الكرمل
قدماي غائصتان في الوحل ولا تعرفان الطريق إلى حيث يسكن النورْ
أما شفتيّ فكانتا تقطران مُرّاً مائعـًا
من ذا الذي يفتح فمه بكلمةٍ ولا تصطادهُ بالشصِّ
بكلمةٍ منك تنير المسكونة وتمشى على الماء
وعلى جبينك تصطف العصافيرُ وحجافل الأيِّلُ الجبلي
أما الوحوش فلها مسالكها الوعرةُ
حيث مسارب الجنات ومراعي الأنهار
على سككك الوعرة تمشي قدميّ دائمـًا
وهما تشخبان ندمـًا ودمـًا
في ذيل جلابيبك تدور رحى الأرض حيث تعلِّق الشمس
في كفك والقمر تريقه على السكك
كالمُرّان والقمحْ
افتح قلبي ليمتلئ بالنور
ولا تزغ عينيّ عن بصيرتك حتى أتشمم أريج أنهارك
أين هي حنطتك والغلال بعيدة والسواقي التي تعمل معطلهْ وأنا تهتُ في السكك
وما عاد في جعبتي سوى المجاز والرمل
أخبئهُ بين عينين نضاختين .
إن تكن أنت النور

فما نحن سوى آنية من الفخار
تحت سماءٍ بألف يأس ؟!

سائق الأظعان

أنا أسيرٌ في هذه الغرفة الجانبية
والتي لم أغادرها منذ ثلاثين سنة
أتطلع إلى النافذة فأرى القمر أرنبًا
وهو يحمل في يده – هونْ –
ليطحن القهوة
وأرى السماء أرجوحة من الخيزران
بيدي الاثنتين هاتين رحت أكنس الغبار عن الريحْ
وأمسح الدموع من على جلباب الطبيعة
التي راحت تتطلع إلى شجرة سرو ضريرةٍ
ربما
لتنشر عليها ملابسها المبقعة بالزمن
أو لتنشر فوقها صاريات السفن الغرقى
وأنا أقول لنفسي
فيم تأخذك الشفقة يا سائق الأظعان
والغي ؟!

هنيهة

مع علمي بأنه باقٍ على الفجر بعيد
إلا أنني أبتسم
أصنع الربيع على جدران كأس فارغهْ
وأضيء الليلْ
تحت كافورة عتيقهْ
وأصعد معهما إلى النهار كجوال يعبر الأقاصي
آه

يا شمسي البعيدة
مرآتك حبر أسودْ
وتنورتك تغسل أحزاني
في فمي نهار يطلع
وأغنية لطائر يصعد البرجْ !!

اسمعيني أيتها السماء وإلا

هناك
في السماء التي تنحدر كانت الموسيقا تتطلع مثل غابةٍ من المرايا
وهنا على الأرض تبكي الأشجارْ
مثل فقمةٍ
ألف طائر يقع في الفخ
وألف غصن يسقط على الأرضْ
لماذا نفتش عن الضوء بأصابعنا التي تعبت من الجنون واليأس
في سنواتنا المعبأة بالخوف
يهتف الأرق
على طرف منجل
اسمعيني أيتها السماءْ
وإلا قذفتك
بالصندلْ
أنا طائرٌ أخرق
أبحث عن الضوءِ
في الضوءْ!!

حجر الشمس

هكذا
وجدتني فجأة
أتأمل الحياة من شرفة الموتْ

كانت العصافير تهبط بالمظلات
والشمس تمسك حجراً
وتحك به جلد الماءْ
لم يكن هناك غير طائر الوحدة
الذي يلعب الاستغماية
على ساحل البحرْ
غير أن الموت الرنان ذا الكاحل الأسود
والكوفية المعبأة بالأحقاد
كان يطل من النافذة
وهو يصوب بندقيته الآليةِ
باتجاه الفراشات
والفجرْ !!

لا تأبه

لمَ أنا محزون دائمـًا هكذا
ألأنني أكتب الأشعارْ ؟!
تلك الأشعار التي لن يقرأها أحد سواي
لمَ أشغل نفسي بالأشعار إلى هذا الحدّ
لم يكن فيرجيل يعبأ بقصائده التي يتركها وراءه على المائدة مثل بقرةٍ
ولا يعرف إن كانت ستذهب إلى المراعي
أو تسقط في البئر
فقط
هو يكتب الأشعار لأنه يكتب الأشعارْ
أما عن الزمن فكان يعلقه في ذيل جلابيبهِ كالفنطاس من الماء
أو يلفهُ حول رقبته
ويمضي به عابراً كل شيء
الحقول والأنهار
لا لشيء

إلا لأنه كان مكلفـًا من قبل الآلهة أن يكتب الأشعار
تلك الأشعار التي لن يقرأها أحد سواه !!

دوخة

كم مرةً قطعت هذا الطريق الدائري يا ترى
من واحة سيوة إلى مرسى مطروح وبالعكس
فقط
لأكسر حاجز العزلة
فقط لأقول لنفسي إنني موجود وكفى
فقط لأتخلص من الكوابيس والوحدة
فقط لأبحث عن قصيدة جديدة كتلك التي كتبها سوفوكليس
أو حتى رامبو
فقط لأبحث عن تلك المرأة التي ضاعت مني
في سنوات الحروب والردة
أحيانـًا
أتطلع من النافذة إلى تلك الشمس النافذةِ
وعبر كل هاتيك الصحراوات
وأسأل
ماذا تفعل كل هذه الصحراوات التي تتسلل إليَّ
وعبر الزجاج من النافذة
لا بدَّ أنها تشعر مثلي بالضجر والوحدة
حيث هذا الوضع اللاإنساني البائس
أو تمثل دور البطل المأساوي
في مسرحية الوجودَ والعدمِ هذه !!

فطناس

فطناس تدلدل رجليها في الماء
وتستغرب الطبيعةَ

وتنام بكامل لياقتها على الأرض
في فطناس
تحاول الشمس أن تدرك القمرْ
ولكنها
تجد نفسها دائمـًا كطائر بزنبرك بين جلباب الطبيعة الشاقة
وفتنة الذات بالذات
وفي آخر الليل
تمسك بكعكتها الحجرية وتلملم شوارعها الضيقة
وجنياتها
لتذهب إلى جبل الموتى
في زيارة خاطفة قد لا تستغرق سوى دقيقةٍ واحدةٍ
ثم تعود وفي فمها نصف ليلٍ دافئ
وحجر صوانْ
على الأقل .

تأفف

لا بدّ أن هذا الشارع
قد مر به أحد سواي في نفس اللحظة ودون أن يلتفت إلى وجودي المحدَّد
لا بدّ أن هذه الذبابة قد انطفأت فوق مرايا أخرى عديدة
وعلى فنجانٍ آخر غير فنجاني
الذي يعبث بالظل والشمس
لا بدّ أن هذه الغيمة التي تتأبط بنطالاً آخر لرجل سواي
قد شاهدت الكثير والكثير وطيلة حيواتها الإسفنجية
من قبل أن تأتي إلى هذه الناحية من الجسرْ
وتفتح فمها ولو بكلمة
لا بد أن أشياءً كثيرة قد حدثت وتحدث في العالم في هذه اللحظة
وفى نفس الوقت الذي أجلس فيه أنا إلى هذه الطاولة
وتحت كل هذه الشمس

1- كأن ينزل أحدهم إلى النهر مرتين في نفس الوقت
ودون أن يعبأ حتى بهيراقليطس ذاته
2- كأن يفتش أحد ما في جيب بنطاله الخلفي عن قاراته الغارقةٍ
أو بقايا حرب كونية سالفة
ولا يزال يحمل مدفعها الرشاش فوق صدره
3- كأن يفكر أحد ما في هذه الفكرة أو تلك
بطريقتين مختلفتين وهو جالس على مقعد مجاورْ
ودن حتى أن يحرّك أصابعه
أو يرف له جفن عندئذٍ
كان عليّ أن أقول لنفسي وأنا أرقب حركة الشارع العضوية
أو اللاعضوية
ماذا لو وضعت كل هذه السماء في منديل ورقي
وقلت:
انطلقي
انطلقي
يا سحابة باتجاه الموسيقا!!

أسطورة بائدة

لم تكن السماءُ تعرف في ذلك اليوم
أن بنات يعقوب الأسطوريات سوف يغتسلن في النهرْ
ولم تكن ثامار - جميلة الجميلات تلك - وهي المدججة بالخفة والطيش
والتي تمشي على الطرقات
باليشمك
والبراقع
تعرف كذلك أن يهوذا ذلك اللعوب الأخرق والذي أكله النمش من فرط ما جدّف
على الله في السكك
سوف يترك على الطريق شهوته الخانقة والتي كان يخبئها
تحت سترتهِ كالبذرة

وأنه سوف يمرّ هو الآخر وعلى نفس الطريق أيضـًا
وفي يده ماندولينه ومعزاهُ
وأنها – أي ثامار – عِجْلَةُ الرب المقدسةِ هذه
سوف ترقد تحت خيمة جسمهِ الواسعة مثل بطة بريةٍ من أول الليل إلى آخرهِ
وهي تتأود وتتأوه من فرط اللذةِ والألمْ
وعلى مرأى ومسمعٍ من الفجر العازبِ
وكافة النجوم السيارة
والذئاب البرية المتوحشة
فلا يترك بين فخذيها إلا بذرته الحارقة الجافة
فيما هي منداةٌ بالشهوة الكاملة والحنين المدّوخِ
فوق برية فلسطين الحارقة الجافة كذلك
كل ذلك بينما كان ملاك الربَّ الحارس واقفـًا يتسمّع
وهو يضحك بملء شدقيه ويقول لهما:
تناكحا
تناسلا
أيتها الخراف البردانة!!

غفران

سامحيني أيتها الأرض
يا أختْ السماء
نحن الذين تلطخت أرواحنا بالسوادْ
وتشققت أيدينا من ضراوة اليأس الممضّ
على شجرتك العالية المزدهرة هذه
سوف يتوقف عصفور أبكم ليكلم الربيع
عن النهر الذي كان هنا أو هناك
عن السماء التي تناثرت مثل كتل من الطين اللازب
أو اللحم الإنساني المفرومْ
فوق أحداقنا المسلوخة

وكشطت كل تلك النجوم من على ساحلِ البحر
بيد الليل الباسلة
آه من
أجفاننا الميتة التي ما عادت تبصرُ
سوى كل تلك الساعات الهرمة
والنوارج العنكبوتية التي راحت تطحن الريح
بيد حمراءْ!!

ترى

ترى
عندما سأموت
من سيقرأ كل هذه الأشعار
الكلاب
القطط
الشوارع
نوارج الليلْ
أشباح المقابرْ
أم ذلك المسنّ الضرير
الذي يمشي على الرصيف المقابل
وهو يفتش عن غيمةٍ عالقة
في طرف حذائه؟!

أنا وهو

عندما توغل يد الزمن البردانة في اجتثاث كل تلك الأشجار
عن موائدنا التي أخذت تذوي وتجف
وتبدأ كل تلك المناجل القوية
في اجتثاث البذرة النحيلة
التي تنمو وبغزارة تحت مزولة الشمسْ

تأخذ روحك التي لها شكل المزامير والدف
في الانتشار حول روحي المجدبة القفرةِ
وتعمل كل ما بوسعها في إزاحة كل تلك الأغطية السميكة
حول بؤبؤي العينين
لتعيد لنا – على الأقل – التأكيد الفعال للوجود الإنساني المضمحل
عبر الصحراوات الشائكة والمضلَّلةِ
وأن ما قطعناه من مسافةٍ غير كافية
لم يكن إلا استراحةً قصيرةً لمحارب صغيرٍ
وفي نوبة جنونٍ عاتيةٍ قرر أن يخوض كل تلك المعارك الضاريةِ
وأن الزمن ذلك الوحش الضرير بعرباته الإسفنجية
وعرائسه الماريونيتية سوف يتوقف ولمرة أخيرةٍ
أمام سواحلك الأبدية لجسمك الذي لا يقال ولا يكتب لا لشيء
إلا ليغني أغنيته الأخيرة
عن الربيع
الذي أخذ يزهرُ تحت نعليك
الكوكبيتين
برهةً
بعد برهةً.

سأترك لقلبي العنان

سأترك لقلبي العنان
في أن يكتب أي شيء وكل شيء
أنا المتوحد على رصيف الإنسانية الخالي من المارة تمامًا
البازل كل أسس البلاغة العصريةِ
واللاعصرية
على رصيف الشوارع المنتبهة للذةِ في لحظة اللذةِ
والخالي من اللذةِ في كل لحظة من لحظات حياتيْ التعسة
أنا الواقع

في غرام الشمس والقمر
وهما يدوران متعاركين
وغير متعاركين
من الأبد إلى الأزل ومن الأزل إلى الأبدِ
أنا الذي أغرقت كل سنواتي الغاصة بالشهوةِ
على مقصلةٍ قديمة
في حجرة جانبية
فوق بناية مهجورة
وقلت لملائكة الأمس المنسيين
استيقظوا أيها الرفاق
قد حان وقت السفر
أنا الذي خبأت كافة الشوارع في جيبي وقلت
أمشي في كل تلك الشوارع وقت الحاجةِ
وبعيداً عن النسيانِ الخالصِ
وأجولة الشيطان المحبوكة
ولكن الشوارع اختفت
وغابت الأزقةُ فوق عربات الإسعافِ
أنا الذي دخلت إلى كافة المدنِ
وأقمت فيها صلواتي
ومُحْرَقاتي
ودون أن أنتظر شفقةٍ من أحدٍ
أو مكافأةً من أجيرْ
ولم يقل لي أحد صباح الخير أيها القديس الأكبرْ
أو الخاطئ الأجير
كل حصاةٍ أسير فوقها كنت أقول لها:
سامحيني يا أخت لقد أخطأت في حقك
أنا لست شريراً إلى هذا الحدّ
فتشت عن الإنسانية في البنايات المجاورة لروحي تمامًا
وفي فقه أبناء الشوارعِ

وفي كتب الفلاسفة العظام
وعجائب الآثار
وخرائط الجغرافيا
فما وجدت سوى كيس فارغٍ
وعلبة سردين مرمية تحت أرجل الكلاب السعرانة
لمَ كل هذا الشعور بالخطأ
فيم كل تلك الشساعة المترامية الأطراف لروحي الجريحة
روحي المضلَّلَةُ على أرضية الشوارع
وفي المشابك المعلقة في حبل الغسيلْ
لمَ كانت كل هذه السنوات التي بذرتها على السكك
كأعوادِ
ملحٍ
لحقل يمتلئ بالديدانِ والصراصيرْ
فيم أتتبع خطى القمر الأحمر
الذي يتمرد على البحرْ
كامرأةٍ فاسقة.

السؤال الصعب

هل
تتوقف على حدود الكلمة فقط
وأنت تمسك بعصا الراعي لتهش بها الخراف الضالة
على معبر الساعات الهرمة للزمنْ
ولا تفكر كثيراً فيما كان أو ما سيكون
فكل شيء يجرى إلى النهاية المحتومة
لمجرى الوجود الإنساني الحقيقي منه
والزائف في نفس الوقتْ
ولا تعبأ كذلك إلا بتلك الشمس التي تحرسها بعنايةٍ بين جنبيك
وفي حجرك تفتش عن كل تلك البقع الرمليةِ

للسماء الواطئة التي أخذت تتكلم
تحت نعليك
هل تفكر ثمة في القيلولة التي تستريح
على ظهيرات السمك الميت
فيما تدلدل رجليك في بحيرة النسيانِ
والخطأ هذه ؟!

سمونها الحياة

يسمونها الحياة
وأنا أسميها الكلبة
الفاتنة الشريرة
يسمونها الشّرَك
وأنا أسميها اللبؤة
تلك التي تلتهم أبناءها صغاراً
وبعد أن تدخلهم في حضاناتها الورقية
لبضع دقائق
أو عدة ساعاتٍ
وتقول لهم كم لبثتم!!
ولا تطبطب على كفلهم ولو لمرةٍ واحدةٍ
أو تأخذهم في حضنها في ساعات الندم والحسرة
أو لحظة الخروج من المدرسة
وإنما تهوى على رؤوسهم بأذرعها القويةِ
والتي تمتلئ بالبلط والسكاكين
أنهم يسمونها الحياة
وأنا أسميها الأم الجافيةِ
التي تدخل من باب
لتخرج من بابٍ آخر.

هجران

أتطلع إلى النافذة
والتي تتطلع إلى نفس الشجرة
وإلى نفس البيتْ
غير أن الشجرة
تستظل بالشتاء في الصيف
وتستظل بالصيف في الشتاءْ
وهي تمتلئ بالعصافير
والفراشاتْ
أما البيتْ
فله روحهُ التي يأوي إليها
وهو يسكن في طابقٍ من هذه البنايةِ
التي هجرها السكانْ
وقبل أن يشعلوا الحرائق
في آخرة الليل!!

أغنية حب قديمة

ساعداها في يدي
على صدرها وضعتُ علامةً على المحبة
بينما يخفق قلبي بداخلي مثل بالونةٍ تندلق أو سارية ترفرفْ
أنا مفتون بعينيها اللازورديتين
بساقيها اللتين تهتزان على الأرض
وعموديـًا باتجاه السماءْ
برنة شفتيها الخلخاليتين
وهما تداعبان الهواء بخنوع
بأنفها الشهواني الذي يُسْحِرُ اللذّة !!
بصدرها الذي يترجرج على ساحل المرمرِ
ويَشرد في الطرقْ

بخدها الذي يأسرُ خديعة الشمسْ
بعنقها الذي يتفوق على الماس
وحدائق اللؤلؤ
من هذه التي تزدهي حتى على سجادة الصلاة
بينما أنحصر في الشوكِ
وضّحِي ردفيك قليلاً
وقبل أن ينجرح فمي!!

سمّ الوردة

سمّ الوردة
سمّها
الشمس اسم لشجرةٍ وتسكن في الظلّ
الغرفة بلا جدران أربع أو حتى نوافذْ وأفاريزْ
يستريح الليل على كفلِ امرأةٍ
ويقطف بيديه العسليتين ماء الينبوعْ
من أعلى الساق حتى وبر السرة
من حديقة البطن وحتى خليج النهدين
أي خراف إلهية ترعى هناك في المقدمة
وفي مراعي العشب الأخضر عند الخاصرة
خزّان إلهي يكمن في الردفين
البحر على اسم امرأةٍ وتسكن في الأعماقَ
يكتب بيديه الاثنتين على حرير الصدرْ
آهِ
البحر
البحر
ذلك الذي لا يُمَسُّ
لا تقلقوا المحار
في الصدف

أيها العميان
يا خراف الربِّ المحظورة !!

كبش

حينما أنكروك
صاح الديك ثلاث مرات
ورحت تتجول عبر السماء الواسعة على مسمار خشبيّ
وخلفك ملائكة الساروفيم
فيما أنت تفتش وللمرة الأولى عن الأب الإله
الذي ينتظرك وبعد طول الرحلة هناك
خلف كوكب الزهرة
أو على عتبة المشتري
ربما ليشتري لك تلك الجنة الموعودة التي كان قد باعها للشيطان
قبل ذلك بثلاثة قرونٍ
فيما هو ينافسه عليك
وأنت تتعارك معه
على سورٍ قديم
لقاء ثلاثين فضة
وكبش
أملح!!

غزارة النسيانْ

في السنوات التي تمضي
في كل تلك السنوات التي تحاصرنا
منذ لحظة البدء وحتى النهاية
وتتشبث ببقايا أثوابنا الرثةِ
ولغاتنا المهلهلةِ
علينا أن نخترع شيئًا آخر

لنفرغ كل هاتيك السنوات
من الأمل واليأسْ
يا ليديك الضارعتين أيتها السنوات التي تمضي
ولكن بلا هدفٍ أكيد
حتى من غزارة النسيان
هذه.

في عيد ميلادي الستين

ستون عامـًا
وأنت تحرث السكك والشوارعْ
بحثـًا عن أي شيءٍ
وكل شيءٍ
بدءاً من اللذة المرعبة وانتهاءً برغيف الخبز
المرّ
ستون عامـًا
وأنت تطارد العتمة والظلّ
على قارعةِ اللاشيء
وفى داخل قواقع العدم الهرمةِ
وها أنت ذا تقف أخيراً
أمام مقبرةٍ فارغةٍ
لا يحيط بها سوى الصبارْ
وزهور الزمن السوداءْ
لتمسك بعصفورة الفراغْ
وهي تتنقل على ساحلِ
الغرق!!

فكِّر جديـًا

فكّر

فكّر جديـًا في أن تلغي الحياة من رأسك
أن تضع الشمس في صندوق نفايات وتلقي بها إلى البحرْ
أن تتوقف أمام مقبرة القرية
لتراقب عظام أمك أو
أخيك أو أبيك
أن تفصص الأفكار إلى كلمات والكلمات إلى حروف
والحروف إلى نقط والنقط إلى اللاشيء
أن تخترع نظامـًا آخر يليق بالعالم
لا يسوده سوى العدل والحريةْ
فكر جديـًا
في أن تلقي بكل تلك الأفكار السوداء من رأسك
وتعود إلى رحم أمك حيث يعم السلامْ
وتنعم بالسكينة الخالصة
أن تسند جسدك إلى النور والظل
أبداً لن تجد أحداً يهتم بك أو يفهمك
سوى تلك الشمس التي تطل من رأسك
وتغطس هناك
في المجرة!!

أحيانـًا أسأل

أحيانـًا
أسأل ما هو الألم
أو ما هي تلك الروح التي تتنطط أسفل النوافذ وعلى الأرصفة
إن لم يكن هذا الذي أنا فيه
كراسة نعسانة على طرف طاولة محذوفة
محبرة على جناح ذبابة
محراث في المخيلة
أنبوبة غاز في إسطبل الميتافيزيقا

أسى في الأصابع
ورم سرطاني في مخ الكواكب التي تندلق تحت أحذية
النوستالوجيا
لا تخبروا الطريق أبداً عن هذه المتاهة
الطرق متقاطعة والنوافذ كثيرة!!
وطابور السيارات المطاطيةِ لا يتوقف أبداً عن العمل في الرأس
مثل ميكانيكي لا يكف عن الدوران في اليأسِ
أمام مقبرةٍ مطعونة
والحياة نفسها هي الحياة
ما الذي يأتي من النافذة
ما كل تلك الصراصير التي تأتي من اللوحة
من هو ذلك الذي يموت في السجن وهو واقف على طرف خيط مقطوع
ومن ذلك الذي يدق علامة الصليب على الأورطي
ويجلس مقرفصـًا على رجاء القيامة؟!

صدقوني

أنا لم أعد أصدق أبداً أن الفجر هو نفس الفجرْ
أن هذه الأشجار التي سقطت من المخيلة ذات مرةٍ قد عادت لتطالب بحقها في الحرية
والعمل
دعوني أدلق جردلٍ نفايات على كل هذه الأفكار الوسخة
التي لم تقدم شيئـًا للإنسانيةِ غير هذا الليل الطويلْ
من الألم
والدمْ
على موائد الرب المتعاكسة من غير أن أتطلع
إلى حرف نافذةٍ منكوحة
هل هو خطأ في التاريخ
أم خطأ في الجغرافيا أم خطأ في الأضاليا
دعوني أواصل النسيان على حصيرة البطاطس

واللفت هذه
فلم تعد في الروح قدرة على الصمود
فيم ينبغي علينا أن نحاول اكتشاف السماء مرة أخرى
وأن نعيد تفكيك الأرض
الأرض التي لم تكن لنا أبداً في يوم
ولكنها لكل تلك الموتوسيكلات التي تثقب
جلد الهواء رغم أنف الجاذبيةِ
وإشارات المرور
السوداء!!
أنا تعبان من كل هذه الحياة
الحياة التي تولد في الرأس وتنتهي عند فتحة الشرجْ
الحياة التي أربطها في طرف حذائي
وهي مبللة بالخديعة واليأسْ
وأدور بها على المقاهي والأرصفةْ
لكي أقول للناس
إنني شاعر
شاعر وكفى
ما جدوى أن تكون شاعراً أو غير شاعر
ما الذي سيضيفه هذا إلى فكرة العدم الجهنمية هذه
أو بنطال اللامعنى الموتور
ما معنى كل هذا في نهاية الدورة الإسطقسية للوجود
سوى شخاخ نملةٍ مقلوبةٍ على سطح منزلٍ مجاورٍ
وهي تتطلع إلى الشمس
التي لا تعرف إن كانت ستراها غداً أو بعد غدِ
أحيانـًا
ما أفكر في هذه الشجرة أو تلك التي تتطاول عبر نافذتي
ماذا تعرف هذه الشجرة أو تلك عن ذلك السقراط
الذي مات مسمومـًا في السجن
أو عن أفلاطون صاحب المحاورات العتيدة عن الجمهورية أو فيدون

هل ماتت هذه الشجرة أمام كنيسة الرب المعلقة ذات مرةٍ
وأصابها العطب أو الخوف من الجنة أو الجحيمْ
ولماذا هي موجودة هنا ولم تكن موجودة هناك
أليست الصدفة المدوخة التي تدهس فاراً بعينه
– تحت سماءٍ بعينها –
ها هي نفس الصدفة التي أوجدت هذه الشجرة
أو تلك الحشرةِ أمام منزلي ذات ليلة
ويقولون طاعة
دعوني فعلاً
أدلق جردلاً من النفايات على كل هذه الأفكار
التي تعششُ في المخيلة وتعيق عمل الرأسْ
بدءاً من 1 + 1 = 2
وانتهاءً بفكرة الجوهر والعَرَض التاريخيتين
بدءاً من أن الموجود الحقيقي هو الغير موجود
والغير موجود هو الوجود الحقيقي
أن الآب هو الابن
والابن هو الآب
وأن الكل في الواحد
والواحد في الكل
صدقوني
أنا لم أعد أصدق أن الفجر هو الفجرْ
أن هذه الأشجار سقطت من المخيلة إلى الأرض
أن الشمس تنبع من هذه الفكرةِ أو تلك
وأن هذه الفكرة
ما هي إلا هذه الشمسِ
دائماً ما يؤدي النور إلى الظلمة
ودائماً ما تقود الظلمة إلى النورْ
الكلمة ظل الكائن
حيث تطلع الشمس يغرد الطائر

ويقف على الغصن
لا على صوت الماء يتوقف
ولا إلى لغة الأشجار ينصتْ
لا علامة على الظل الهاتف
في فجوة الفجر تبحر الشمس إلى الكلمة
في السماء حيث تختلط السكك
وتقع بقع الحبر على الفستانْ
تأتي الأرض باكيةً إلى الحافةْ
ويتوسل النور إلى الذاتْ الواصفة
والموصوفة
وفى نفس اللحظةِ
لا مجال للنفي إذن
حيث الشجر والقطط
الخفافيش
والبق
الصيصان
والدود
الجراد
والنمل
جميعها جميعها
تأكل في قصعةٍ واحدةِ
على مائدةٍ
من طين الرب
المخمَّر !!

صورة

في الأتوبيس المكيف الهواءْ
وعندما مرّت صورتها أمام عيني

ابتسم قلبي من جديد لذلك الفستان الأحمرْ
والذي كانت ترتديه كل يوم
وطيلة سنواتها العشر الأخيرة
لم تكن تكلم أحداً
أو تنظر إلى أحدٍ
فقط
تترك لخطواتها التي تسير على التراب
أن تمرّ كسحابة ماطرة
وفي الليلِ
تأوي إلى قفصها الصدري
ومعها كل تلك الكلمات والقطط
التي كانت تلون بها العالم
أذكر
كان وجهها يشبه الربيع دائمـًا
وكانت عيناها مثل تفاحتين
بريتين
وكان صدرها مثل حانةٍ من العنب
وتحلم بيد العاصرِ
آه
يا لتلك الشمس التي كانت تختبئ
تحت فستانها الأحمر وهي تمشي على الماء
بقدمين
من شهوةٍ !!

فرناندو بيسوا

سوف يتوقف هذا الطائر الجبليْ
على بعد سنتيمتر واحدٍ من الأرض
ربما

ليرقب الشمس وهي تتقشر على الرمل
أو ليراقب الزمن
وهو يعمل مثل بائع خردةٍ أو نافخ البوق
فوق صارية من خشب
منقوع
على ظهر سفينة غارقةْ
لا
لكي تهدأ كل آلات الجرّ والنفي هذه
وإنما ليغرس أنيابه الفراسة
وأظافره
في لحم العالم
الحي!!

صانع التماثيل والفحم

في الليل
اضطجع على فراشي ولا أطلب من تحبه نفسي
كلما أسير في طريق ينبجس طريق آخر أكثر ضراوةً
كلما أتحسس جسد الوردة
أجد جرحها غائراً وبألف فم
كلما أتطلع إلى القمر أرى السماء حجراً
والفجر كتلة من الرصاص المقشعر فأقول لنفسي
لمَ كانت كل هذه الملهاة الإنسانية بالأساس
ومن المستفيد في نهاية الأمر من كل أولئك العميان
الذين يجلسون إلى نفس الطاولة ؟!
فأشبك ذراعيَّ خلف ظهري
وأقول لنفسي: تفِ على العالم
ولكن العالم يتبعني حتى ولو كنت في زجاجة كأنها كوكب دوري
زوجتي تقول لي:

انظر إلى الشمس أليست جميلة بما يكفي يا حبيبي
فأقول لها الشمس صورة من الجحيم حقـًا
تقول لي : عشِ مثل وردة ولا تفكر في الزمنْ
فأقول لها : ولكن الوردة لا تخضع لضرورات الغياب
أو التماثلْ
كنت أتمنى أن أكون ورقة تحت حدوة حصانْ
ماذا قبل العالم؟
ماذا بعد العالم؟
قل لي أنت يا صانع التماثيل
والفحمْ .

الحياة في مكان آخر

في الحياة السيئة السمعة
عرفت الكثير والكثير
الحياة في الكتب
والحياة في الأدراجْ
الحياة في المكاتب العمومية
والحياة على الأرصفة
الحياة في علبة كبريت
والحياة في الفنادق العائمة
الحياة كصرصار وأعمى
والحياة كملك متوجْ
الحياة كقديسٍ وصاحب رؤية
والحياة كسكير وصاحب حكايات أو حانات لا فرق
الحياة كسائق لعربة روبابيكيا
والحياة داخل صندل بلاستيك
الحياة كجندي يخلص للوطن
والحياة كمتسولٍ ولصٍ

الحياة مثل بائع خردةْ
والحياة كشاعر عظيمْ
الحياة فوق شاطئ بحيرة طبرية
والحياة في ذريبة
الحياة كموظفٍ يرفع علم الدولة الرسمي
ويعمل في الأرشيف لمدة عشرين ساعة في اليوم
والحياة كعاطل عن العمل
وفي نهاية الأمر اكتشفت أن الحياة
ربما تكمن في مكانٍ آخر
غير هذه الحياة.

هدوء العتمة

نعم
نعم
سوف نتذكر الليلة قمرنا الأخير
ونتسكع في الشوارع البردانة والتي تنام بعيداً
عن اليقظة
ليس لنا أن نحب الغيوم التي دلّلتنا
والتي تتخبأ تحت أسرتنا
العريانةِ
وكلماتنا المدججة بالوساوس
ولا أن
نتوقف عن السمع
والطاعةِ
مثل طائرٍ أعمي
في هدوء
العتمة!!

من أجل سالومي الجميلة

آه

قريبـًا

وقريبـًا جداً

سوف ننتهي من عمل كل هذا الليلْ

وسوف ينتهي عمل كل هذا النهار كذلك على مغزلٍ أجيرْ

ربما

لنتمكن من إصلاح إحدى قصائدنا المعطوبة والملفوفة في ورقة باذنجانٍ

في قلب مدينة أريحا وفوق برية فلسطين القاحلة

على عربةٍ نقالةٍ تجرها وراءك مثل برتقالةٍ مشوية

في انتظار أن يصلحوا لها نظارتيها السوداوينْ

لكي تعيد اكتشاف الشمس بين فخذي امرأةٍ محبوكةٍ

ووراء نخلةٍ ضاريةٍ تحت سفح جبل

هناك على نهر الأردن

حيث اغتسل يوحنا المعمدان ذات يوم من أجل سالومي الجميلة

عندئذ ستجد هناك ما يقول لك

إن هذا النهر يشبه جوف البحر تمامـًا

وفى الصبح سوف تعرف كيف تغسل صينيتك الملآنة

بالجثث والجماجم

بالماء القُراحِ

والصراصير

فإذا ما جن الليل

سوف ترى القمر وهو يرقص برداناً وعاريـًا

على شواطئه الملتاثة بالعبير والبنفسج

وهو يؤرجح ذكرياته المالحة

أو يغني لنفسهِ أغنياته

التي نسيها فوق بحيرة طبريةْ!!

القصيدة السوداءْ

[1]

أية أرض
تلك التي نسير عليها وتمتلئ بالدمامل
أية أغنيات تلك التي تخرج من بين شفاهنا صدئة
وميتةً
وملوثة بالخراب والفحمْ
أية أرغفة هذه التي نجزها بالشراشر
ونقطّعها بالسكاكين
والبُلَطْ
من على الأرصفة والحجارة
ونتقاتل عليها مع النمل
والذبابْ ؟!

[2]

أصابعنا تحترق من الخوف
أرجلنا لا تدوس إلا على اليأس
على عتبات بيوتنا أورق السوادْ
ونوّر الألم
حقولنا جفت من الذرةِ والأمل
في النهر الذي نشرب منه
تسرح القطط الميتة
وتمرحُ الضفادع
بدلاً من السمك والشمس
في البئر الذي تحرسه النجوم دائمـًا
لا ينزف إلا الدم الحار على طبق من النوستالوجيا
وبلا انقطاعٍ أيضـًا تتجول الصراصير بحريةٍ
وفي الليلْ
تُقبل الهموم التي تطأطئ الرأسْ

وتكسِّر الضلوع
بشغفٍ
[3]
لا أمل في الحرية الكاذبة
ولا أمل حتى في الخلاص بالموتْ
علينا أن نتحمل ونتحمل ما حدث ويحدثُ
وسوف
ي
ح
د
ث !!
[4]
آه
الرجال الذين كانوا يخلّصوننا من الطواغيتْ
ويخلصون النية لأوطانهمْ
قد أصبحوا الآن بعيداً بعيداً
المنازل التي كنا نحتمي بها من الرعب والخوفْ
صارت زنازين
وأضرحهْ
الرجال الذين كانوا يخلصوننا من الموتْ
قد أصبحوا الآن بعيداً بعيداً
البعض قد راح يتسول أمام المنازل الغريبة
الآخرون
يتجولون في مقابر جماعية
أو شبه جماعية
[5]
غداً
أو بعد غدٍ
سوف يأتي اليوم الذي لن يجرؤ فيه أحد على السير

في مثل هذه الشوارع
وتحت أسقف كل هذه العمارات
سوف تغني الخفافيش بالليل
والنهارْ
أغنياتها الرائعة
عن الحب والسلامْ
وعلى الأرصفة الميالة
سوف توزع منشوراتها الجمة
عن الحرية والعدالة
[6]
صارتْ الجثث تملأ الشوارع
والجثث تملأ الهواءْ
الجثث في محلات الأغذية
الجثث فوق الأطباقْ
والجثث تحت طاولات المقاهي
صار الهواء جريحًا
ولا يجد من يُغسِّل له رأسه
أو حتى ينظف له أسنانه
وأصابعه
صارت المراكب تهرب من البحرْ
والبحر يهرب من الشواطئ
مع صديقه المحارْ
وأخذ القمر يتقيأ بعينين سوداوينْ
والشمس
تفلِّى رأسها بين المقابرْ
وهي تمشي على عكازينْ
وفي فمها خوختٌ مدودة
وقمر ضرير
على سرير اللوكيميا

[7]

نحن الجماجم المخوخة التي تمشي على الأرض
لا نستقبل النهار إلا عبر مكبرات الصوت
وصفارات الإنذار
بقلوب من فحمٍ
وكربونات
ورؤوس حيوانات منقرضة
وسلاحف الأركيولوجيا
نحن فئران التجارب الميتة الحية
والحية الميتة
والذين تحولنا وداخل هذا الوطن
إلى أنابيب بلاستيك
ومربعات سيراميك
وبأس
نحن حراس الظلال الكونية
والمقابر الجماعية
الموطوئين بالأحذية والقباقيب دائماً
سوف تنهشنا الدببة الجائعة
والسحالي الصخابة
التي تخرج من الجحور في وضح النهارْ
وتتنطط على علب الصفيح
وأكوام الحجارةِ
بلا دمعة أجيرةٍ من أحد
أو حتى كلمة رثاءٍ خالدةٍ .

[8]

أيتها السماءْ
انتظريني هناك وعلى الرصيف المقابل
حتى ينتهي الموت الرنّان من أغنياتهِ ومواويله
التي يتركها على الجسرْ

وينظف أدواته التي يستعملها هنا
أو هناك
وبضراوةٍ على الأرض
وتحت أعين الكروموزومات الضالةِ
والخلايا الجذعيةِ
ودون أن يملّ
أو يصيبه العمى.
[9]
أيتها الشمس المركبة
يا صديقتي الوفية
تمهلي قليلاً قليلاً ريثما نرفع عيوننا إلى السماءْ
الميتة
وشلالات الضوء النياجرانية
لنتأمل الفجرَ العابرَ
بعيوننا التي أنكهتها الكوابيس
وصرخات الموتى
بعيداً
بعيداً
عن كل تلك المقابر التي تملأ الهواءْ
وتسدُّ عين الشمس.
[10]
الكلاب تنبح في السكك
والشوارعْ
والكلاب تنهش عظم الوطن الملكلوم
على خريطةٍ
متفسخةٍ
تحت أرجل المارة
وبائعي اللفت والسجائر
الملفوفةِ

الكلاب تأكل خبزنا المحروق
وحتى ملحنا المشمّع !!
[11]
الذرة
حتى الذرة !!
لم تعد تشبع الناس في الشوارع أو تجد الحقول
القمح أصبح جاهزاً للتصدير على شاحنات الـ CIA
وعربات دفن الموتى
صار الهواء إسفنجيـًا
واستنشاق طعم الوطن حامضـًا
ويقف في الحلق كالدبابيس
والإبر
[12]
غداً
أو بعد غدٍ
سوف يأتي الطاعون بعد الأوبئة
وسوف تهب رياح الأوبئة
بعد الطاعونْ
سوف يقع الزلزال في يوم ما
ليقضى على الناس في الشوارع
كالكلاب
والقطط
وسوف تقفون صفوفـًا
صفوفـًا
في انتظار حكم الإعدام
أو الخلاص
حتى ولو بالمناجل !!
[13]
الرعد

هو صوت السماء الحق
صوت السماء الحق يقول لكمْ
أنتم أشرار
وقتلةْ
فاسدون
ومراؤون
أنتم شركاء في الشر أيها الآمنون في منازلكمْ
وداخل أبراجكم العاجية
وفوق طوّافاتكم
سوف يلاحقكم القتل
والدم
وتطاردكم الكوابيس واللعنة
حتى في داخل مراحيض طائراتكم التي تقف على الحدود دائمًا
– على أهبة الاستعداد –
في انتظار لحظة الهروب
من الجحيم
والموت.
[14]
أنا
لا أبشِّرُ بالموت
ولكنى أرى السماء وهي تنفتح بأبوابٍ كالمهلْ
يشوي الوجوه
افعل شيئًا يا الله
من أجل هؤلاء وهؤلاءْ
فلم يعد بعد ثمة غد أو بعد غد !!
[15]
المتسولة تمد يدها إلى الهواء ولا تجد سوى الدبابيس
والإبرْ
الأعمى تقوده روحهُ المرحة إلى حبل المشنقة

أو حديقة الموتى المسننة بمقصاتها الأربعة
وأنبوباتها الماصة
الأبكم يقول :
أين هي الحرية بنت العاهرة الكلبة هذه
لأفض بكارتها بمفرديْ
وأنام في سريرها لوحدي
الحرية !!
هذه العاهرة اللبؤة
والقاتلة المقتولة.
[16]
الأبرص يقول:
ماذا أخذ كل هؤلاء الشهداء من أجل الوطن
سوى موتهم المجاني على الحدود
وداخل شبكات المجاريْ
كل ذلك من أجل حراسة تجار المخدراتِ
ومهربي السلاح
والمومسات ؟!
كل ذلك من أجل بائعي الوطن فوق عربة روبابيكيا
وداخل صالات القمار
والكازينوهات ؟!
[17]
الأصم يسأل
عن النغمة الصحيحة في سيمفونية الخنازير هذه
الجندي يسأل
لماذا يبيع رجل الدولة الباذنجان واللفت
ويشتغل بتهريب الرقيق الأبيض
والعملات الأجنبية عبر أنابيب الغاز
والناقلات العملاقة
وسماسرة البورصة؟

[18]

القاضي

يزيف الحكمْ لصالح مجموعة من الفئران الضالة

والشركات المعوية

وبنوك اليانصيب والحظّ

وتجار الدم الفاسد

والصحف الصفراء المملوكة لتجار الأفيونِ والبانجو

رجل القانون يسنّ القوانين في المطبخ الرسمي للدولةِ

ويعلقها في حبل غسيل لتجف

فوق أعمدة الإنارة

وعلى ظهر الميكروباصات «المخَلَّعة»

كعلامةٍ أكيدةٍ على ظهور منع الحملْ

وعند انتهاء الدورة الدموية

أو التشريعية

– لا فرق –

يضعها علفـًا للماشية

وخبزاً للبراغيث والقمل !!

[19]

الطفل يذهب إلى المدرسة لا ليتعلم

وإنما ليسرق الخبز

فيما يشاركه الذباب والناموس في النعاس

على بوابات دورات المياه العمومية

ودراسة فقه الشوارع

وحساب المثلثات والمربعات في بالوعات المجاري

وداخل المزابل الكونية

ومقابر الصدقة.

[20]

حلاق الصحة يعمل مشرّع قوانين ليلاً

وأستاذاً للفقه الدستوري نهاراً

وكذلك مدرساً
للأدب ما بعد الكولونيالي
والبول المقارَن
لقاء علبتين من السجائر "الفَرْط"
وحبوب منع الحمل
والعازل الجنسي
ريثما
يكون قد انتهى تماماً وبالفعل
من طبخ كل هذه المسائل الإيديولوجية
في مطبخ الغائط الكحولي للدولة.
[21]
رجل الشرطة يهتف :
إشارات المرور كلها سوداءْ
سوداءْ
سوداءْ.
[22]
جاؤوا مع الفجر
سرقوا فانوس غرفتي الوحيد
وتركوني في الظلام
أخبط رأسي في حقل مجاورِ
لروحي تماماً
وقالوا لي:
نحن لا نريدك
أنت لا تشبهنا نحن خفافيش الليل والنهارْ
قلوبنا لا تعمل إلا في الظلام فقط
كانت النجوم تنطفئ
وهي مقطوعة الأيدي والأصابعْ.
[23]
جاؤوا مع الفجر

سرقوا وطني
خبؤوه في زجاجةٍ
– الزجاجة كأنها كوكب دُرِّي –
أخذوا الماء
ورموا الزجاجة في البحر
وتركوني فوق جبل
أتفحمْ
جاؤوا مع الفجر
أخذوا أحلامي
وقبضوا عليها من هدومها
وعبؤوها في أكياس من النايلون
ووضعوها تحت عجلات قطار
بكلاّباتٍ
ووحوش.
[24]
جاؤوا مع الفجر
كانت الوردة تبكي
والربيع يقف مصلوبـًا على فردة حذاءْ
وسنابل القمح تحترقْ
المنجل في يد البلطة
والبلطة في يد الصرصارْ
والقمر
حتى القمر الذي كنا نلفه حول أعناقنا في الليل
مات مخنوقـًا على ضفة النهرْ
كالكلب
والشمس
الشمس التي كنا نحبّ عصافيرها في الشتاءْ
وفي الصيف كنا نحملها على ظهورنا
ونغني لها مع الجنيات

والقطط
قد ولت صفراء وواهنةً
على لسان الشرشرهْ.
[25]
توقفي أيتها الريح في منجم الفحم الأسودْ
أخلع ثيابك أيها النهار على عتبة الليل
فالفحم الأسود للموت
يلتهم الأغنيات
وما عاد الزمنْ
سوى ذلك الحصان الأعمى
الذي يقف مبهوراً على عتبة الهاوية
أو تلكم الساعة الكهربائية التي تتكتك
في سلةِ باذنجانْ !!
[26]
جاؤوا مع الفجر
كان الطفل يلعب بالحجلة مع النجوم في القفص
والنجمة الكبيرة الحمراءْ
تمسك بيد الليل البردانة
وتقوده إلى الفرشات
غير أنهم كمموا فمه بالشواكيش
وعصَّبوا عينيه بالإبرْ
فبكت السماء من الألم
وضريراً تكوم القمر في حفرةٍ
غير أن أمه التي أصابها الجنون والعتهْ
أخذت تدور في شوارع المدينة العتيقة من شارع لشارع
باحثةً عن صديقه البحرْ
وتسأل :
عن وردته الأثيرة التي خبأها خلف سرواله
في سترة الرملْ

[27]

جاؤوا مع الفجر
أخذوا ساقيتي من نحلتها
وتركوا أرضى عطشي
ذبحوا ناقتي في الليلْ
لم تعد الجواميس تضحك في الحقلْ
ولم تعد تغني السواقي للنجوم والفل
في الظهرْ
أسودّ القمح في السكك
ومات الربيع على شجرة ينسون.

[28]

لماذا بالمنجل والبلطة قطعوا شجرة الجوافة
ولماذا سرقوا النهر القريب من أمام منزلي
وباعوا سراويله العتيقة في سوق النفايات
أيتها الشمس المُدْرَكةُ بالشصِّ
أراكِ باكيةً وفي الأسر
لماذا تسحبين رأسك إلى الوراء
في الفجر
وأنت ترقصين على سن إبره.

[29]

هذا الليل يحبس ذخيرته الوحيدة من الجواميس
حتى لا يسرقوا منه النجوم في عربة روبابيكيا
توكئي على عكازٍ يا روحيْ
فالماء الذي تحسبينه على قيد نهر من السماءْ
أصبح على بعد خطوةٍ
من نملةٍ مقلويةٍ
في سفح الجحيمْ.

[30]

جاؤوا مع الفجر

أخذوا كتبي ورموها إلى النارْ
قطعوا أصابع الأطفال بالمناجل
فقأوا أعين النهار بالرصاص
وساقوا الكلمات إلى الذبحْ
وأحرقوا اللغة على الأرصفة
وقالوا لكناسي الشوارع
اكنسوا كل هذه النفايات
لم يعد هذا زمن الأغاني
سنعمل من الأمعاء كراسات للريح
ومن الفجر سيارة إسعاف لـ ....
مادونا الجريحةِ
ومن الكلمات بطاريات رائعة للأسلاك الشائكة
ومن الشعر سيارات لدفن الموتى
ارفعوا الغناء عاليـًا
أنتم
يا من تسكنون هناك في المقابر الخلفية
للزمن !!
[31]
جاؤوا مع الفجر
ووضعوا الفجر في زنزانة
وقالوا له:
صهٍ صهٍ
لا ترفع صوتك عاليـًا
أنت غير مرغوب فيك بالأساس
لماذا تتسلل إلى بيوتنا كاللص
وتدخل إلى شوارعنا ومعك كل هذه النجومْ
نحن نقدس الظلامْ
ونزرع كلماتنا بالليل
فلا ترفع كِّمك بالأغانيْ

[32]

جاؤوا مع الفجر

سألوا الوردة لماذا تسكنين في هذه الناحية

من الألمْ

قالت الوردة:

لأن صديقي القمر يسكن قبالتي على الناحية الأخرى

من الجسرْ

سألوا العصفورْ

لماذا تقيم فوق هذه الشجرة بالذات

قال:

لأن صديقتي النجمةْ

وبعد أن تكون قد انتهت من إضاءةِ

كل مصابيح الليل

تسكن معي في نفس الغرفة

سألوا النجمة

لماذا تقيمين هناك في خيمة السماء الواطئة هذه؟

قالت:

لأن الله قريب من هنا.

[33]

وفي النهاية

أخذوا الوردة إلى المنفي

وأشعلوا النار في البئر

وبعد أن ركّبوا لها عدساتٍ لاصقةً

قالوا لها:

أنت عمياء

ومفلوجة

وخيطوا فم العصفور بالإبرة

ولم يبق أمامهم سوى النجمة

فعلقوا لها المشانق
وقرروا إعدامها
في ليلةٍ سوداءْ!!

عاهرة بابل المقدسة

ما الذي يفعله محمد آدم الآن في أرض أور
يا صديقي نبوخذ نصر؟
إنه يغني عن الأفق مع أن الأفق كله معلق في كمه
وبين أزرار سترته
التي أشتراها ذات يوم من بائع خردة في سوق الروبابيكيا
وتخضع للتفتيش الذاتي من شرطة المرافق
ما الذي يفعله محمد آدم الآن يا كزار حنتوش؟
إنه يبحث عن الله بالشخاليل والدف
مع أن البحر لا يزال عالقًا بين إصبعين من أصابعه
يحركه كيف يشاء
ويركض حافيًا تحت نعليه الإردوازيتين
فيما يمسك بين شفتيه المشققتين باللفائف المبعثرة والسمك الميت
والبوص المجفف على ساحل الأهوار
وحدائق بابل المعلقة
وبقايا السفن الغارقة لكتائب الإسكندر الأكبر
وجسد هيروديا الشرموط
وعينيها الشهوانيتين اللتين تنزان بالحليب
واللذة
وصندل يوحنا المعمدان
وكوفيته البيضاء
والتي تلطخت بخنجر هيرودس انتيباس
فصارت مثل خليه نحل مبقعة بالعسل
والدم

ما الذي يفعله محمد آدم الآن يا سركون بولص
إنه يشرب الشاي الأخضر بالنعناع والهيل
في مقهى الشهبندر بجوار كافورة نازفه
كشاهدة أخيرة على مذابح التتار الجدد
والمغول
تحت جدارية فائق حسن
رغم أنه يسكن في حانة سيدوري العتيقة
تحت حدائق بابل المعلقة
والمطرزة بالإوز العراقي
والبط !!
وينتظر عودة جلجامش العجوز على حمار مكسور
كما لو أنه يسعى إلى الأفق
بكلتا يديه
ويدخل في حوار عقيم مع إبراهيم
عن النبي صالح
وناقته الخضراء التي فرت من الهاجرة
والملح
لتختبئ هناك
على جبال حاج عمران
ومندلي
عن اللبؤة المقدسة ساراي الجميلة
فاتنة القدس
والتي أخذها فرعون مصر كعشيقة لألف يوم
أو كبغي لأحد قواد جنده
– على سريره المزركش بالأطفال والجماجم –
ليعلمها قواعد العشق الرنان
ولغة الجسد المقروء
فيما تكلمه عن نوارج الرب الرنانة

وفوانيسه المعطلة
حول مقبرة بابل المعظمة
والتي تضم رفات العالم القديم
بدءاً من قابيل
وهابيل
ومروراً بالملك الفارسي يزدجرد
وابنته شاه زنان
عن حوت النبي يونس على مشارف نينوى الواسعة
وحتى رأس الحسين
وحلابجه
يا لمحمد العتيق !!
إنه مثل بحيرة مفتوحة
يستطيع كل ابن زانية ضليل
أن يصطاد فيها السماء بحرية
مثل فأرة عمياء
ويربطها في طرف حذائه
ليطوح بها حيث يشاء
آه
يبدو أن الفضاء العجوز يشبه فمًا فاغراً
لساحرة شريرة
بأسنانها الغير منتظمة
أو ربما عاهرة بابل المقدسة
أقصد
ساراي الجميلة
عجلة الرب الشريرة
والتي باعها الرب للشيطان بثمن بخس لقاء دراهم معدودات
من أجل عجل هارون
الذهبي!!

SADISM

حين نظر الله إلى الأرض من فوق
ورأى أن كل شيء حسن
قال : لتكن الأرض كالرحى
دائرة تدور إلى الأبد ولا تتوقف !!
فكانت الأرض كالرحى
دائرة تدور إلى الأبد
ولا تتوقف
قال : لتكن الشمس على الأرض
كالبرتقالة
فكانت الشمس على الأرض كالبرتقالة
في كبد السماء
وقال : ليكن القمر دليلاً للغرباء
والعشاق
من كل فج
لكي يتكاثروا ويتناسلوا كعشب الحقل
أو عدد ذرات الحصى والرمل
فكان القمر دليلاً للغرباء والعشاق من كل فج
فتكاثروا وتناسلوا – وكما قال الرب –
كعشب الحقل
أو عدد ذرات الحصى والرمل
وقال : ليكن نور وظلمة في قلب الإنسان
فكان نور وظلمة في قلب الإنسان
وقال : ليكن الخير والشر عدوين لدودين
على الأرض
وألى أبد الآبدين
فكان الخير والشر عدوين لدودين على الأرض
وإلى أبد الآبدين
وقال : ليكن الشيطان

والإنسان
وجهـًا لوجه
على خشبة المسرح المعجونة بالعظام والجماجم المخوخة
على مر الزمن
وأغلق الستارة
فوق هذه الأرض الشريرة
فقالت الأرض : في رحمي سوف يرقد الكل في الظلمة
بحسب كل كلمة تخرج من فمك
يا رب !!

أبو بكر الشيرازي

بلغ نيسابور في أواخر تشرين ولم تكن فيه الظهيرة مألوفة
ورأى أعمده الخيزران السامقة
والتوت البرى الذي يغطى الأرْضَ والعصافير التي تلعب
مع القطط في الشوارع الجانبية
والكنائس المعلقة والغاصة بالمصلين من كل فج
والمآذن التي ترتفع عاليـًا تحت قبة السماء الزرقاء
دار في شوارعها مرة واثنتين
فلما لم يجد أثراً لتلك المرأة المشتهاة خاتون هانم
والتي قابلها صدفة على حدود طشقند في ليلة شبه عاصفة
أدرك أن الزمن هو الآخر قد توقف عند حدود الرؤية والسماع فقط
وأن السمع والبصر والفؤاد ما هي إلا أدوات لخداع المخيلة
أو الذات
إلا أنه وفي هذه اللحظة بالذات أبصرها من بعيد
واقفة هناك تنتظر
تحت شجرة سرو عتيقة
– وقد غطت شعرها باليشمك
ووجهها بالبرقع الذي صنعته لها يدين فارسيتين

من مدينة تبريز –
وهي تناوله كأس الخمر الممزوجة بالرغبة
في حانة هناك على جنب الطريق
وتكشف له عن ساقيها الأبيضين المعطلتين
وجانبي الصدر الأرجوانيين اللذين يشرئبان هناك
ناحية الكوكب الذي أخذ يبزغ في السماء الزرقاء فجأة
عندئذ أدرك أنه ما أتى من نيسابور من أجل ذلك الشيخ العجوز
الذي يعلمه الفقه وعلم أصول الدين وبحور الشعر
وإنما أتى من أجل هذه التفاحة الذهبية بالذات
وما عاد يعنيه أي شيء في هذا العالم غير هذه المرأة
أو إن كان يبحث عن الوجود بالقوة
أو الوجود بالفعل
أو إن كان الله موجوداً أو غير موجود بالأساس
أو ما هي الأدلة الحقيقية على وجود عالم آخر بعد هذا العالم
والذي سيكون ممتداً في الفراغ اللانهائي بعد انفصال الروح عن الجسد
وانتقال الروح من برزخ إلى برزخ
بقدر ما أصبح يعنيه أن خاتون هانم تلك المرأة الخلابة
ما هي إلا العلامة الفارقة على الخطأ الذي يسكن في الصواب
والصواب الذي يكمن في جانب الخطأ
وقال في نفسه:
أليست الصورة في المرآة
هي هي عين المرآة في الصورة؟!
عندئذ خلع نعليه ورمى بقجته المحصّنة على الأرض
وألقى بجراب خبزه المقدد على مخدته
وربط حماره الذي أرهقه السفر والنسيان من طول الرحلة
وقلة الزاد
إلى جذع نخلة ضاوية
في انتظار أن تجره هذه المرأة ذات يوم إلى باب بيتها
لكي تكشف له عن الفرق الحقيقي

بين الاستعارة المكنية
وعشبة الخلود
وذلك عبر الخريطة الممتدة من سلسلة الظهر
وحتى أسفل البطن
وحديقة الردفين!!

التفاحة

ماذا عليّ أن أفعل سوى العودة إلى المنزل
وأنا خالي الوفاض مثل كل يوم
وماذا سأقول لأمي
إن هي سألتني عن محبوبتي كاملتي
منذ الصباح وأنا أدور في الشوارع التي تعبت من العتمة
الشوارع التي تفضي إلى الشوارع
والبحر الذي يقف على إبرة الخطأ!!
لم أجد أثراً لنعليها
ولا لتلك السماء التي كانت تتركها على السكك هناك عند الظهيرة
ريثما تصعد إلى البرج
ولم أجد أثراً حتى لرائحة شمسها التي بقعت ثيابي بالفراولة
ترى أين ذهبت هذه المرأة
التي ما نظرت قط
إلى أية حديقة؟
وماذا سأقول لأمي
عندما أعود إلى المنزل؟

السماء وقت العاصفة

قالت لي:
لمَ لا تكتب شعراً ويصلح لهذه الوردة
لمَ لا ترقّع حذاء تلك الشجرة

الأشعار زائفة إذا لم تأكل وتشرب
وتعرف الجوع
الأشعار التي لا تعرف الطريق إلى الأوتوبيسات العامة
وعشش الصفيح
لماذا تحدثني عن الحب يا حبيبي
أنا منذ ليلتين قد فقدت زوجي
ومات ابني الوحيد في الحرب وهو أب لطفلين
وترك زوجته أرملة
منذ ليلتين
وأنا لم أتناول الدواء
ولم أفتح النافذة لمرة واحدة لأن القمر
وهو يتمشى على الرصيف المقابل للمنحدرات قد سقط في البئر
وأخذت الفئران تقرض أصابعه
قلت لها:
وأنا – ومنذ ليلتين – كذلك
أنا أحاول أن أكتب قصيدة عن المرأة الوحيدة
التي تعرت أمام النافذة لتكشف لساعة الحائط
عن جسدها المحموم
المرأة التي تفتح شرفتها كل يوم
لعصافير الجنة كي تتناول وجبتها المفضلة
من السوبرماركت
تلك العصافير التي فقدت عشها
منذ أن فقأ الصياد
عين الشجرة!!

ديموكريتوس أبدرا 460-370 ق.م

جاب المدن والفيافي
قعد في الصحارى حتى جف حلقه وأصابته الشمس بالغيبوبة وتفكك العظام

قرأ أشعاره على الرمل والماء
أبحر في الليل على ضوء الشموع
والقمر
أعد لنفسه خريطة من ورق البردي عن العالم الحديث
غير تلك التي أعدها سقراط لنفسه واتخذها قاعدة بيانات
عن العالم القديم
بحث عن الذرّة أسفل حذائه الذي ينفجر
وخلف كوكب الزهرة
مال بجسمه النحيف كي يسمع غناء تلك الأرض
أو بكاء هذه النجمة
تلفلف بالثلج وهو يتفحص السماء مثل ذئب بري
بتلسكوباته المقعرة والمحدبة
بحثًا عن الآلهة الذين يسكنون هناك في السماوات
وحولهم ملائكة الساروفيم
والحوريات
أفرط طويلاً في احتساء الخمرة الرديئة
وهو يتخيل محبوبته سالونيكا
بين أحضان رجل آخر
هو الذي أفرط في المحبة ويعرف التقاويم ومسالك البلدان
لدرجة أنه أراد اكتشاف المجرات من أجل أن يأخذها هناك
حيث لا نأمة
ولا حيوانات
قال له سقراط ذات يوم:
لا تشغل بالك يا صديقي العزيز بالمعرفة إلى هذا الحدّ
فالعالم غامض
ولا أحد يعرف الحقيقة
وما نحن سوى مجموعة من الكلاب الضالة
سوف يأكلها الدود في نهاية الأمر!!
فما كان منه إلا أن ضحك من سقراط العجوز

وأخذ يهزأ من تلاميذه واحداً واحداً
الأمر الذي جعل أفلاطون المناوئ
يصفعه بقوة على وجهه
ويطرده من مدينته الفاضلة
حيث ينبغي على رجل سفسطائي مثله أن يسكن في الجبال
مع الأجلاف
والحمير
وهناك
وفوق معبد دلفي
أخذ يعيد صياغة العالم مرة أخرى
وقد كانت هناك كاهنة المعبد الشرموطة
التي أخذت تمارس معه الجنس والشهوة المقدسة تحت شمس الظهيرة
وعلى مرأى ومسمع من كافة الكهنة
والعرافين
وهي تنشد الأشعار عن أولئك الطرواديين العظام
الذين سحقوا الفرس ومزقوهم شر ممزق
تحت أعين زيوس الحقود
وأنشؤوا – هناك – حضارة زاهية لا يمكن للزمن أن يمحوها
ومهما كان يحمل في يده من فؤوس أو معاول
الأمر الذي جعله يفكر (أى ديموكريتوس) مليـًا
عن المعادل الموضوعي للعالم
فلم يجد سوى الذرّات
والقش
مما جعل القائد العام للمدينة
– وبتحريض كاملٍ من تلميذ سقراط العتيد –
أن يصدر عليه حكمـًا بالإعدام
ومشنوقـًا على شجرة جوافة أمام معبد دلفي
وجعل الأطفال يرجمونه بالبصل والطماطم
الرجل الذي كان قد تجاوز المئة

وهو يبحث عن الله
بين الذرات
والفجل!!

دينة أو الحكاية المحرمة

ربما لم يكن البدر مكتملاً في ذلك اليوم
ربما لم تكن النجوم تلمع في الأفق كالعادة
ربما لم يكن الله منتبهـًا أو مقروراً
في شملته التي تلف السماء والأرض في بطانية
عندما أبصر شكيم بن حمور
تلك الفلفلة البرية دينه
اليهودية اللعوب التي غطت فرجها باليشمك والبراقع
مخافة أن يقتلها الإفرائيميون من فرط اللذة
أو رغبة في الاستحواذ
ابنة يعقوب
الرجل الذي أخذ يتصارع مع الملاك ليلة بكاملها
من أجل أن يعطيه الرب كل هذه الأرض التي تمتلئ
بالتين
والزيتون
من غور الأردن وحتى تخوم أبيمالك
وأورشاليم العتيقة
فيما كانت دينه – اليهودية اللعوب – تعلك اللبان والمر
وترعى حدائق المران والسوسن
على جبل الجليل
وهي تحمل جرتها الفخارية بحثـًا عن الماء والكلأ
في أرض الكنعانيين العتاة
الذين لا يعرفون شيئـًا عن الرب
رب إسحق

وإبراهيم
ولا يقدمون محرقاتهم سوى للبعل والخنافس
وكاهنة عشتار اللبؤة
والتي كانت تفتح فرجها
لكل راغبي المتعة الغامقة
فيما راحت دينة تهدر على السكك وتغني بصوت مبحوح
أنا لحبيبي وإليّ اشتياقه
نفسي تعبت من السهر بالليل
روحي ملآنة حبـًا
وجسمي صار أرجوحة
اجعلني في شبكتك أيها الصياد فأنا تعبانة من المشي
على السكك في الليل أو اجعلني كخاتم على أصابعك
أحملني بين ذراعيك كالطفل
فإني مريضة حبـًا
أقطع عناقيدي بيديك القويتين أيها الجالس هناك
على السكك في الظل
وازرعني كفسيلة أعناب تحت خيمتك
أمي تركتني في العراء والبرد
وإخوة لي خلفوني هناك في المراعي بين الأكباش
وأنا خائفة من الذئب في الليل
ثيابي تعبت من الخوف
وكلماتي جفت من النسيان في الحلق
علقني قنديلاً على باب بيتك أيها الشاب
كي أكون علامة لك وحتى لا أتوه منك في السكك
ضمني إلى مراحك وقطعانك في الليل والنهار
مخافة أن يأكلني الذئب وأنت غافل عني أو يأخذني اللصوص كذبيحة
أنا وحيدة ورفيقاتي تركنني على أبواب القرية
وذهبن إلى مخادعهن كي يغتسلن ويمارسن الحب
خذني أيها الشاب الجالس هناك على السكك

لأرعى بين حدائق المرّان
والسوسن
ولا أكون إلا لك لقمة سائغة في فمك
وثمرة شهية بين شفتيك
اجعلني غنمة بين معزاتك المشتهاة
أنت الراعي الوحيد للسوسن
في كل هذا الجبل
والسهل
وأنا حاملة الجرار والخمر
في بيت أبي
إخوة لي ضربوني وقيدوني بالأغلال السلاسل
خيطوا فمي بالإبرة حتى لا أنطق باسمك في الليل أيها الحبيب
وأبي قد وضعني هناك في الجُبَ وإذ رأى اسمك محفوراً
على بطني
وفوق مصطبة ظهري العريضة
أمي قد أحرقتني بالنار حتى لا أكون عاراً وسط القبيلة
أنا أصرخ عليك وأنت لا تسمعني
اجعلني امرأتك حبيبتك
أو خليلتك لا فرق!!
وإن سألوك عني فقل هي أختي لأمي وأبي
وأنا سأكون لك وحدك نعجتك وخيلك
أيها الساكن هناك بين الجنات وعلى مجاري المياه
تعبت من الخدمة في بيت أبي
وعند خالات أمي
أنحل زنار جلبابي
فانزع عني خمار رأسي
وأنا سوف أنزع لك بقية الثوب
أنا لحبيبي وإليّ اشتياقه
أنا غيمتك المبللة بالتوت

والأيل الجبلي
وأنت شمسي الأخيرة
بلل شفتي بلسانك الحلو
وامسح من على سرتي بقع حبك
احملني إلى حيث تركض في البرية
ففي فمي مزمارك العذب
أنت نهري الذي أشرب منه
وأنا جرتك التي تحتفظ لك بالماء
حلوةً
وصافيةْ
في الصباح
اذهب إلى حيث ترعى أغنامك
وفي المساء أجلس أمام بيتي
عساك أن تمر
فما كان من شكيم إلا أن قدم قبيلته كلها قربانًا
من أجل قلفة
فيما كان رجل الرب الصالح
يعقوب
يعزف بالكنّارة على جبل جلعاد
وينتظر وعد الرب لآبائه وأجداده بأرض اللبن والعسل
فيما ارتفع عدد القتلى في ذلك اليوم
إلى أربعين ألفًا
كل ذلك حدث في صباح ربيعي منهك !!

ذات يوم

وأنا في الصف الرابع الابتدائي قررت أن أكتب
قصيدة عن الوردة
كانت الوردة كاملة وتبكي من الألم

الألم المحذوف من الكتب المدرسية
والألم القابض على رقبة الحياة من مؤخرة الحياة
ولم أكن ساعتها أصغي لبراد الشاي المغلي على النار
ولا للقوالح التي أخذت تنطفئ من شدة الماء
الذي يخر من السقف
ولم أكن أعتني بساعة اليد التي تعطلت فوق معصمي
على شجرة جميز ناشفة
وأنا أجمع اللطع وكيزان الذرة
من خلف ثيران الحقل الملتاثة
والنوارج الرنانة لساعات الحصاد
والحصر
في فمي أغنيتي البردانة
وعلى صدري شبح طائر
يأتي من المقابر
كما لم أكن أستقبل الشمس تحت ثيابي المحبوكة
على جسمي الناحل
وأنا فوق بركة من الطيور الملونة
وجحافل النمل
وها هي شجرة التوت البري
التي سقطت من الترعة لتوها في ساعة الظهيرة العدوة
لم تزل عطشانة لمليمين
وفراشات الحقل التي كنت أجمعها
في طرف قميصي
لم تزل هي الأخرى ترفرف للنهار المفضوح
على سن إبرة!!
لم تكن أمي تكلمني أبداً عن الله
ولا عن الجحيم
أو عن تلك الجنة الموعودة والمملوءة دومًا بالقوارير

وبالعذراوات الأبكار
من الحور العين
ولا عن الولدان المخلدين
أو بنات فارس الأسطوريات الشبقات
بل عن اللبن الرائب الذي شربته القطط والكلاب
من آنية الفخار المدسوسة في الفرن
ومن حبة البطاطس التي سقطت قريباً من السطل
وانا جالس كالأعمى
والأصم
أراقب طيور النحاس الهرمة
وهي ترفرف بجناحيها البنيين في سقف الغرفة
المكتظ بالعناكب والفيزيقا
ولم يكن أبي يعبأ بطائراتي الورقية
أو انشغالاتي
بقدر ما كان يسأل معلم الحساب و الجغرافيا عن جدول الضرب
وهو ينظر إليه شزراً من خلف محراثه القديم
وفي يده فرقلته المدفورة من الليف
وجريد النخل
ومن يومها وأنا أجمع وأطرح الحياة في سلة مهملات
خلف أولئك التلاميذ الصغار
الذين ينتبهون لحصص التاريخ
والموسيقا
في بنطلوناتهم المرقعة
ومن يومها
وأنا أكتب قصيدتي المنتظرة عن الوردة
في الصف الرابع الابتدائي
وبعيداً عن مدرس الفصل الرهيب
في مدرسة تلبنت أبشيش المحروسة .

زنجيات باريس الشرسات

في طفولتي
كثيراً ما كنت أصادق القمر
وأنا أمشي خلف ناعورة مقصبة
أحيانـًا ما كنت أتذكر تلك المرأة التي تأتي عصر كل يوم
لتبيع الحليب والقشدة أمام منزلي
وهي تجلس على مصطبة الدار
فيما تكشف لي عن ساقيها الأبيضين
وأنا بجلبابي القديم لا أفعل أي شيء
سوى أن أنظر إلى هاتين الساقين الحليبيتين
مثل لص ويتحين الفرصة
إلى أن ذهبت إلى باريس ذات يوم
واكتشفت نوعـًا آخر من الزنجيات الشرسات
اللاتي يروحن ويجئن على نهر السين
وهنّ عاريات أو شبه عاريات
أو يتسكعن بطراوة و تؤدة تحت قوس النصر
بنهود ذهبية وأجساد من نار !!
ومن يومها وأنا حائر النظر والنظرة
بين تلك المرأة التي كانت تبيع الحليب والقشدة
وتجلس على مصطبة الدار
مثل بئر معطلة
وقصرٍ مشيد
وزنجيات باريس الطروادیات .

سليمان الحكيم

وهكذا
ظل راقداً على الكرسي لعشرات السنوات
في يده منسأته

وعلى صدره كافة النياشين والأوسمة
التي رصّع بها الملوك والقياصرة
غرف نومة
وجدران قصره
بعين نصف مفتوحة
ويدين ساكنتين إلى جواره
ظل غارقـًا في نومه
وكأن الزمن الذي يتسرب من بين رجليه
ويمر من خلال أصابعه
سيربطه من قرنيه
إلى حلقة من الحجر
بينما النساء اللواتي استجلبهن من الأصقاع البعيدة
أو أخذن أسيرات في غزواته اللاتعد
ظللن يمسكن بمراوحهن الفضفاضة
لكي يطردن عن وجهه الذباب
والدبابير
وهنّ يرحن ويجئن
بين أعمدة قصره العتيقة
أو في الحديقة الخلفية للمعبد
وينتظرن ساعة موته
أو حتى تأكله العتة
وفي تلك الليلة
ظلت الجلعادوية السمراء والمخلصة الرثة لآلهتها القديمة
تدلك له قدميه
وتدعك عصفوره الذهبي الأملس
والذي ظل ساكنـًا في حجره كطائر أخرس
على أمل أن يأخذها كمحظية من محظياته اللاتعدُّ من بنات الملوك والقياصرة
واللاتي تجاوز عددهن الآلاف
فلما لم تجد منه أية رغبة أو استجابة لشهواتها العارمة

أو لتلك اللؤلؤة التي تلمع هناك تحت القبة
أخذت تطلق اللعنات على رب الجنود
وعلى ذلك الجالس على الكرسي كالدمية
وعلى مدينة أورشاليم التي راحت تعج بالعاهرات والمومسات
وعبدة الآلهة القديمة
التي راحت تنتشر في الحواري الضيقة والأزقة
لتلك المدينة التي أختارها الرب من دون كل مدن العالم
لكي تكون سكنـًا له
ولذرية إبراهيم ابن صانع التماثيل والبعل
والجميلة ساراي من بعده
لكي تُقدم فيها مُحْرَقاته وقرابينه
إلا أن أمراً طارئـًا قد حدث في تلك الليلة الليلاء
عندما رأت على وجه القمر الأحمر أن سربـًا من النمل المتوحش
قد أخذ يخرج من بين المنسأة فجأة
والتي ظل الجالس على العرش يستند عليها لعشرات السنوات
فيما سقط الجسد كالسطل
على أرضية الغرفة
الأمر الذي حرر معه الآلاف من الإماء والجواري والقيان
من ذلك السجن الرهيب الذي يسمونه القصر الملكي
فيما راحت مملكة أورشاليم تتهاوى
تحت بلطة الموت الذهبية
وإلى جواره ترقد منسأته
التي أكلتها دابة الأرض
وعندها أخذت الجلعادوية السمراء تطلق الأغاني والزغاريد
في كافة أنحاء المدينة
لكي تعلن على الملأ نبأ الخلاص
من ذي الجلال الجالس على العرش
كالدمية!!
والذي حوّل المدينة إلى مستنقع كبير

يغصُّ بالضحايا
وبيوت الدعارة
وأسواق العبيد
من كل بقاع الأرض.

عامل المقهى

إلى سيد الفيومي

ترك قريته الصغيرة بجوار النيل
وأمه التي تعيش في عشش الصفيح والزبل بين الكتاكيت والقطط
وهو يحمل في يده مزولة من الخشب
على أمل أن يجد لقمة
بين المقابر!!
فاشتغل سباكـًا في أول الأمر
ثم عامل بناء في المدن الجديدة
وأخيراً عامل مقهى صغير فوق هضبة المقطم
وما كان ليتوقف عن الغناء أبداً
أو المراودة
وكان يرقد أمام المقهى كل ليل مثل ذئب أعمى
وهو يطرد البعوض والنمل
من على جسمه الذي أكلته العتة
وكلّله النسيان
والرهق
لم يشاهد أبداً تلك المرأة التي كانت تتسلل إلى خيمته كالقصر
في آخر الليل وهي تحمل متاعها القليل
الذي يتكون من صندل قديم وبطانية مرقعة
لتجلس في الركن البعيد من المقهى ومنزوية بجوار النافذة
وهي تتأبط عصافير الوحدة الشرسة
أو تتحين الفرصة لتكشف عن ساقيها لقاء كوب من الشاي المر

أو قطعة صغيرة من البقسماط
كلمته كثيراً عن الله الذي أخذ أمها وهي طفلة
وعن زوجة الأب التي جعلتها تمارس الدعارة
حتى مع كلاب الشوارع
من أجل قطعة خبز
أو بضعة نقود
وعندما زهقت من الحياة
قررت أن يكون لها بيت وأولاد وعامل مقهى !!
وأن تستريح من كل هذه الحياة
حتى ولو على رِجل رَجل أو فوق دكة خشبية أمام جامع قديم
أو في بيت من غرفة واحدة وفوق السطوح
حتى ولو كان بلا كهرباء
أو دورة مياه
وفي كل ليلة كان سيد القهوجي
– وبعد أن يكون آخر زبائن المقهى قد غادر
ودفع الحساب كله عن ظهر قلب –
كان يجلس أمام فخذيها اللدنين كالجائع إلى الخبز
ويلحس مؤخرتها كالرضيع
فيما كانت يده التي كلت من الكنس والمسح
تعرف الطريق دائمًا إلى جسدها الفاره
وإلى نهديها التاريخيين
وهي تتنطط أمامه كاللبؤة
من فرط النشوة
فيما تصرخ من اللذة والألم
ولا تتوقف عن النخير والشخر
حتى تحول المقهى إلى فردوس صغير لعاشقين
لا يعرفان أي شيء عن هذا العالم
سوى لغة الجسد
المسموعة

والمرئية
وكانا إذا أطل عليهما الفجر من شرفتهِ العالية
الرفيعة
يعرفان جيداً كيف يمسحان آنية اللذة
عن الفاكهة المحرمة
ويستشعران فيما بينهما قوة الطبيعة التي لا ترد
والتي تعرف – كذلك بالسليقةِ – كيف تمسح أحزان الأنوثة اللزجة
عن البقع الصغيرة التي تملأ الشقوق
حتى ولو بشق تمرة
في ركن صغير من أركان المعمورة
وبجوار عامل مقهى
فوق هضبة المقطم !!

لعبة الحياة

غالبـًا ما أفكر في الحياة
وأنا غائب تمامـًا عن الحياة
الحياة الوسخة
البهية
الحياة التي تضحك لي في الصباح
وهي تلفني بشالها الأرجواني في الظهيرة
وأنا أمشي في السكك
وفي المساء تكشر لي عن أنيابها الأخطبوطية
وتمددني على سرير بروكست
أو في غرف العناية المركزة
دائمـًا دائمـًا ما أفكر في الحياة كامرأة
لا تملك سوى أحمر الشفاه
ومؤخرة لزجة
تترجرج ذات اليمين وذات الشمال

وأنا أريد أن أتزوج تلك المرأة وأنجب منها أطفالاً
يزرعون البطاطس
أو يذهبون إلى معهد تيودور بلهارس
أفكر في الحياة بشكل زائد عن الحاجة تمامًا
وهي تفتح لي ساقيها الحليبيتين
ثم تلف ذراعيها حول رقبتي كالأفعى
لتمص دمي
وأنا من فرط السذاجة أصدق أنني في حضن امرأة
من لحم ودم
إلى أن اكتشفت أخيراً
أنني كنت أسير بين المقابر
وفي فمي عدة أرغفة من نحاس محروق
وعدد لا يصدق من الأكاذيب
ولا يضحك مني إلا شجر الصبار المحروق
وبجواري تقف جمجمة مسلوخة
على ساق عمياء
ولا يلعب بداخلها سوى الدود!!

الرجل الذي صار أغنية

في الليل
سار الرجل إلى جنب الترعة
كانت سمكة وتلعب في الحقل
والحقل يلعب بالعصا
أبحرت السمكة في الترعة
وارتاح الرجل في الحقل
جاءت امرأة
خلعت ثوبها
كانت المرأّة مثل الوردة

وكان الرجل يحرث في الحقل
المرأة
جلست تحت الشجرة
وأخذت تضحك للقمر
فرد الرجل ذراعيه
ولوح للمرأة
المرأة صارت حقلاً
والرجل أصبح أغنيه.

الأيدي الفسفورية

الأيدي الفسفورية
السماء العمياء
النهار الخرف
الليل العجوز ذو القبعات
العجين الميت للكهل
الموسيقا التصويرية
للكلاب
الصدأ الأنثوي لمؤخرات العجائز
النوافذ
على باحة القطط النعسانة
التريسكلات
فوق قصبة البحر
الأرغن في زريبة الخنازير
الصباحات الرائجة
في فم الحيوانات
الصراصير
تأكل الفحم
ذلك ما تعزفه الريح

على مَدرج الكسل
والنمل!!

انتصار

تنتصر الحياة
ينتصر الحب
ذلك ما كان يقوله القديس فرانسيس دائمـًا
من فوق هضبة الكنيسة المعلقة
ومن يومها والأطفال
يلعبون لعبة الاستغماية
في فناء الكنيسة
ويطاردون الراهبات
في الغرف الداخلية المغلقة
للكنيسة المعلقة
وينتظرون الكاهن الأكبر أن يقول لهم
تناكحوا تناسلوا
يا خراف الرب البردانة
تنتصر الحياة
ينتصر الحب
على الرغم من رداءة الطقس
ومذبح الرب الرنان الذي يغص بالمصلين
والشمطاوات!!

فراشة عمياء

من تكون
وما كل هذه المصائر
الأرض التي نحلبها كل صباح
أصبحت مثل جرةٍ ومكسورة

في فمي
ترقص فراشة عمياء
على جسدي يسبح قمر في الظلمة
فوق ركبتي تسيل نوارج اللذة
وعلى بطني ترقد خنفساء ميتة
على فخدي ثمة طائر ويقولون له أبو منجل
ما الذي أفعله أنا بكل هذه الشراشف
سوى بقع حبك
التي تقع على السطر
ارقدي أو تمددي هناك أيتها الرغبة الرائدة
تحت جذع هذه الشجرة
التي تعج بالفراشات والظل
لكي أشهد – أنا – حليب الفجر الغامق
وهو يندلق على شفتيك الجهنميتين
أيتها المتسترة بالعتمة
أيتها النهمة!!

قديسة الظاهر

إلى هدى نعيم
والآن
قولي لي
ألا زال عندك زيت في المصباح
والمصباح في زجاجة
ألم ينطفئ قنديلك القديم بعد من كثرة الاستعمال والشغل
ألم تركبي قطار الثامنة مساء
لتذهبي إلى الإسكندرية ليلاً
تلك المدينة التي تفضلينها على كل مدن العالم خاصة في الشتاء
هل لازالت تسريحة شعرك هي هي كعادتها

وكما تركتها أول مرة
وقبل أن ألمس عجيزتك التي تلتهب في الظهيرة وألمس ثدييك من غير قصد
ألم تقولي لي ذات صباح كسلان أن دمك هو دمى
ثم أتيت بقطعة من الزجاج المشطوف وجرحتِ بها أصابعي وأصابعك
على مرأى ومسمع من كافة الغرف والمرايا
فأختلط البحران في مشهد تاريخي
ألا زالت شفتك الحبلى بالكلمات تمسك بقافية الليل الموزونة
كي تعتصرها وخشية أن تفضحك الشمس التي تطل عليك
من النوافذ والشبابيك الجانبية
ألا زلت تصرين كل يوم على المشي من حي الظاهر
وحتى كنيسة الروم الأرثوذكس وأنت في كامل الهيئة
وفى يدك كتاب الصلوات والمزامير علامة على الورع والتقوى
ألا زال السيد المسيح يزورك عصر كل يوم
وبعد انتهاء صلواتك أمام المذبح
في مخدعك العالي وكما كنت تقولين دائمـًا
وهو يزيّن صدرك بالفراشات والفل
ويترك على مصطبة الظهر أثار شفتيه المبقعتين بالدم
ويطبطب على كفلك الذي أمتلأ بالحليب عن آخره
لا أكاد أصدق أن كل هذه الطيور التي تعبر السماء
في الفجر
هي طيورك أنتِ
أنتِ التي أرسلتها خلفي لتتلصص عليّ في ساعة الظهيرة
وعنما أكون مستلقيـًا أتسمع لوقع خطواتك على السلم
قولي لي
ماذا أفعل في هذا السجن الكبير والذي يسمونه العالم
وأنا أفتقدك كل يوم
منذ متى ونحن لم نلتق أيتها القديسة المصنعة في براميل النشارة
حتى الرب نفسه ليس لديه أية موانع في أن يكون
جسمي لصق جسمك

شفتي فوق ركبتيك
ذراعي حول حوضك
وأنت تنامين جنبي مثل طائر هدّه الهديل
حتى ولو كنا أنا وأنت على وسادة في الجحيم
دائمـًا دائمـًا
فليتقدس اسمك في الملكوت!!

قيلولة

كم أتمنى أن يعود بي الزمن إلى الوراء
لأجلس قليلاً على العشب المبتل في الصباح
وأسمع غناء أمي المتبل بالدموع
وهي تدور خلف ساقية مهجورة
وتغني عن المرأة التي ماتت بالسل
في مطلع الربيع
"بكره يسدوا عليكِ بالقوالب الحمر
لا صوت يجيني تاني
ولا سلام العمر
بكره يسدوا عليكِ بالقوالب الطوب
لا صوت يجيني تاني
ولا كلام محبوب"
كم أتمنى أن يعود بي الزمن قليلاً إلى الوراء
لأسير خلف حمار أبي المخطط
الذي ينهق على أنثاه المعتادة
وهي تتنطط أمامه على البر التاني وأبي يضربه بالسوط
خشية أن تأخذه نوبة من الجنون والضحك
فلا يعبأ بما يحمل فوق ظهره
من كيزان الذرة
وسلال القمح

كم أتمنى أن يعود بي الزمن قليلاً إلى الوراء
لأسمع صوت المؤذن وهو يرفع الغطاء عن الفجر
في القرية النائية هناك على جنب الترعة
فيما طيور الإوز والديك الرومي
تملأ البركة النائمة كالأساطير والفحم
في أرض الجرن
كم أتمنى أن يعود بي الزمن قليلاً إلى الوراء
وأنا أنتظر حبيبتي كاملتي هناك
فوق ساقية مهجورة
وهي تحمل في يدها سلة من الخبز المحروق
وعلى صدرها تلعب حمامة نازفة
فيما تهتف النجوم
أنت يا سارق الحليب
والغي
"بكره يسدوا عليكِ بالقوالب الحمر
لا صوت يجيني تاني
ولا سلام العمر
بكره يسدوا عليك بالقوالب الطوب
لا صوت يجيني تاني
ولا كلام محبوب!!".

وصف تفصيلي للحياة الكلبة

لم أنتبه للحياة وهي تمر بجانبي
مثل كلبة مسعورة
ترضع أبناءها الصغار تارة
أو تلقي بهم في حفرة جانبية
تارة أخرى
ليأخذهم جامع القمامة الشرير في نهاية اليوم

بينما الحياة الكلبة
ترقد على الطرق
في انتظار كلب آخر
ليصنع قمامة جديدة!!

رجل الساعات

الزمن الذي كنا نعبئه في زجاجة ملونة
ونطوف به على الأسواق والمتاجر الشعبية
فوق جمل أعرج
كثيراً ما نرصه – الآن – على طاولات المقاهي
والإسطبلات
والعنابر الشاسعة للجنون
والغرق!!
وهو يتوكأ على عكاز الليل البردان
مثل ذئب أخرق
فيما يبحث لنفسه بعينيه المستنقعيتين
الزائغتين
عن برتقالة معطوبة
أو شعيرة ناشفة
لكي يضعها هناك على الأرفف الخالية
في دولاب الرب الرنان
الذي يمتلئ بالعظام
والفحم
وهو يقضم بشفتيه العنكبوتيتين تلك الثمرة الرثة
للوجود الإنساني المضمحل
فيما يجلس على كرسي خائخ
في مقهى شعبي
لكي يتذكر النسيان!!

حلم الرمل

إلى نعمات البحيري
تذكرتك وأنا أقرأ حلم الرمل
فغاص قلبي من الألم في السكك والشوارع التي قطعناها معـًا
مرة بالبكاء ومرة أخرى بالضحك
لا أعرف كيف أسترجع صورة عينيك اللتين تكتبان على الحوائط
أن الأمل مثل شجرة الأضاليا
أو مثل جرس الحصة لا بدّ أن يدق في نهاية اليوم المدرسي
ويتفرق التلاميذ إلى بيوتهم
التي تقبع تحت طاولة مستديرةٍ
وأن كوفيتك الخضراء التي تلفينها حول رقبتك
سوف تتحول وفي نهاية الإمر كذلك إلى كابوس مكيف
لحاملي أوراق اليانصيب والبنكنوت
والتي يخبئونها في دور العبادة
والمؤسسات العامة لجامعي التبرعات الخيرية
والتي سوف تتحول بدورها إلى بالوعات العولمة الواسعة
التي تصب في المجاري الدولية
للأدب المقارن
أو لشبكة اللصوص الجدد والنصب
وتجار الأراضي
وسماسرة اللحم الإنساني المفروم
وفيما أنتِ تتسللين بخفة طائر أعمى
خلف سليم السامرائي إلى حدائق بابل المعلقة
وإبراهيم فهمي الذي أكلته العتة
وهو يكتبك على الأوردة والعروق النافرة لجسمه النحيل الأهوج
كل ذلك من أجل أن تكتبي أنت
عن أشجارك القليلة التي تقف عند المنحنى
ولا أحد يبالي

أو يهتم بكِ أو بحلم الرمل
المبثوث
في السكك!!

جنيّسارت

وفي تلك الليلة
حيث وقف التلاميذ في انتظار السيد القادم على الماء
وفي فمه سمكة خضراء
وبضعة أرغفة من الخبز المعقوف من الشعير والذرة
ورأى الناس شكل الحجارة وهي تنشطر على الأرض إلى نصفين
فيما أخذت الشمس تتفكك على البحر كقطع من البللور والمرايا
بينما سالومي الجميلة والتي عبرت نهر الأردن بالدف والمزامير
وفي يدها الرأس الأصلع ليوحينا المعمدان
وصندله المعوج
وهي تستعرض أرديته الكتانية التي كان يتلفع بها
وبقجته المحشوة بالعفاريت والسحالي
وعصاه المبقعة بالدم
وتغني أمام كل ذلك الحشد الهائل من النظارة
وطاردي الأرواح الشريرة
وأمام هيردوس انتيباس جلست هيرديا الأرملة
وهي تكشف عن جسدها الحرير
و ساقيها المطعمتين بالزمرد والأّس
إذ ذاك
صاحت امرأة من الوقوف وقد أحرقتها شمس الظهيرة القاسية
أيها السيد قل لي:
ما هو شكل الآب الجالس هناك في السماوات
وأين تكمن جنته الموعودة؟
وهو لم يعد يعبأ بكل تلك المجزرة التي تحدث أمامه

أو يحرك ساكنـًا على طول التاريخ الإنساني
إذ ذاك قالت سالومي
أنا التي سوف أجلس على عتبة الرب
وأمامي سوف ترقص هيروديا عارية
أنا – هو – الجسد
وحفنة الريح التي تمر
ولا تعود !!

ليليث

أنا أجمل النساء بلا منازع
يا رجلي الحبيب
يا سيدي وأميري
أسماؤهن أسمائي
أفخاذهن رمانتا صدري
مؤخراتهن نعلاي
أثداؤهن تفاحي
وأقفاص فراولتي
شفتي مكسوة بالنعناع والسكر
بطني معجونة بالآس والبنفسج
صدري منقوع في طاس خمر وعنب
أنفي كصهيل فرس ويصعد البرج
على بطني تركت بصمتك يا رجلي الحبيب
ورحلت
بصمتك التي لا يمحوها الزمن
ولا يقدر الموت حتى أن يجرحها
وعلى سرتي تركت أقماع سكرك ومضيت
من أجلك تركت أهلي ورحت أبحث عنك في السكك والشوارع
و صرت عني غريبة

حتى بين أصدقائي
أرجوك
انظر إليّ
كلمني
تحسس ساقي
ركبتيّ
اربطني إلى ساقيتك المعطلتين في الليل
فأنا بغلة برية
وإلا تحولت إلى عمود ملح
والآن
تعال واخبرني عن حال جسمك
يا رجلي الحبيب
نهار آخر ضاع مني
شمس أخرى سقطت مني في البئر
صرت عني بعيداً بعيداً
لماذا تتركني في البحر
وماذا أصنع بمراكبك التي تعبر بعيداً عن الشمس
انظر إلى لئلا أغرق وأتنفحم
في العام القادم سوف أنتظرك
وتحت هذه التينة إلى أن تمر
يا سكري وحليبي
يا رجلي الحبيب!!

تتمة رجل الجليل الأعلى

وما إن خرج الرجل من بيته
ووطنه
ومن دياره
وبين تلامذته

وجيوبه مثقلة بالحجارة
والسمك
حتى استراح بيلاطس البنطي من دمه
وزوجة يوسف النجار التي كانت واقفة تبكي
وعلى يديها ابنها الرضيع يعقوبْ
وهي تشهد ابنها البكر على الجلجثة
وعلى رأسه تاج من الشوك
وقد غسَّل يديه من صَلبه
وقتله
وسلمه ليهوذا المغفل
بثلاثين فضة
هي كل ما قبض من ثمن
بينما راح يوسف النجار يجرجرها من شعر رأسها
الطويل الأشقر
في هذه الظهيرة العدوةِ
وهو يقول لها
ما لنا ولهذا المنحوس الأخرق
قائد الزيلوت الزرق
والسيكاريين الكلاب
أريد أن أضمكِ الآن بين فخذيّ
وأرتوي من جسمك الذي يمتلئ
بالفراشات
والتوت الأحمر
أنا في غاية الجوع والعطش
هيا هيا أيتها اللبؤة
فعضوي ما عاد يحتمل
ما لنا ولكل هذه الهراءات!!

قائد المئة

وبينما كان رمح قائد المئة ينفذ في رسغيهِ
كان الجنود الرومان بالفعل والمدججون بالسلاح
والخوذاتْ
يرقدون على العشب
ويبحلقون في الفراشات التي راحت
تتزاحم على رأس المصلوب بشكل غير معهود
ولا إنساني
فيما النسوة اللاتي تجمعن
حوله وجئن من الطرقات البعيدة
والمنحدرات
وحتى من أعالي الجبال
رحن يتعرين بوحشية ويكشفن
عن أعضائهن التناسلية التي راحت تلمع كالنصل
تحت الظهيرة الأخاذة
كاليواقيت والدر
فيما كان الجنود الرومان والذين أرهقهم السفر
والخمرة المغشوشة من قصب السكر
وعَرَق البلح
راحوا يستعرضون قواتهم الجهنمية وعضلاتهم المفتولة
ويتعرون بوحشية كذلك
ويمارسون الجنس الجماعي مع أولئك النسوة البالغات الجمال والقسوة
تحت شمس الظهيرة التي أخذت تلسع وجوههم
وجباههم مما جعل العرق يتصبب من جلودهم
كالأنهار
أولئك النسوة اللاتي راحت صرخاتهن تتعالى
وهن يشخرن
وينخرن من فرط اللذةِ

ويطلبن من قائد المئة الواقف هناك تحت العريشة بإلحاف
أن ينزل هذا الجسد المثخن بالجراح من على الصليب
حتى لا يعكر صفو تلك اللحظة التاريخية
– أو يؤخر الأورجازم من جراء ذلك المشهد المريع –
والتي سيذكرها التاريخ حتمًا
ضمن أوراقه المبعثرة
أو اللانهائية
أو يفسد هذا العرس الجماعي
في قانا
والذي تحبذه الآلهة
أمام منظر هذا الدم اللامبرر على الإطلاق
وضمن حدود تلك المملكة
المترامية الأطراف
تحت قدمي ذلك الجالس هناك على عرش روما
مجمع الآلهة الخالدين ومشرعي القوانين العباقرة
كل هذه المقابلة حدثت ويالالأسف
في مدينة بعيدة وسط جلودٍ منتشرة
لتجف تحت الشمس
وأطفال يلعبون
مع السحالي!!
فيما كان قائد المئة ينفّض ثيابه
التي ملأها الغبار
وطرطشات الدم
وهو يقول
تف على مدينة الرب الزانية هذه بيت لحم
والتي تمتلئ باللصوص
والكلاب
وكانت الصرخة الأخيرة للمصلوب وهو يواجه الشمس
بضراوة ويئن

وبصدره الذي صار مثل أرجوحة مخرمة
ويديه الاثنتين اللتين تهدلتا إلى جواره
مثل كتلتين من الرصاص والخردة
يا أبتِ
ارفع عني هذه الكأس
أرجوك
أريد أن أنام
أنا لست في حاجة إلى مملكتك التي تمتلئ بالدم والجماجم
أريد أن أضجع وأحلم بالظل والشمس
وبطيورك الخضراء
بعيداً عن كل هذا اليأس الذي يمشي على قدمين
ويفحّ في السكك كالصهاريج!!

الفن والحرية

إلى أنور كامل

قابلته على زهرة البستان في ليلة شبه عاصفة
كان يجرجر الزمن خلف ظهرهِ كالعوينات
وكانت سنواته الملبدة بالسجن
وأحذية البروليتاريا
تقف أمامه مثل صف طويل من العهن
أو المقابر الجماعية
وهي تتنطط إلى جواره كالوطاويط
والقمل
وعندما كان يتذكر أربعينيات القرن المنصرم
ورفاقه الذين ماتوا في السجن
أو انتحروا في المنافي
من كامل التلمساني

إلى جورج حنين
إلى رمسيس يونان
وشهدي عطية الشافعي
كان يدخل إلى عالم السريالية الفخم
وهو يقضم برتقالة الماليخوليا
وإذ ذاك كانت تنحدر من عينيه دمعة كبيرة
بحجم السماوات والأرض
وعندما كان يسترد الذاكرة والوعي
كان يشخر
وهو يخرج عضوه للرصيف المتنامي ويقول
في البوتقة الواحدة الذهب يلمع والقش يدخن
الضربة الواحدة تحطم القش وتفصل الحَبْ
الزيت والعَكَر يمتزجان معًا
إذا سالا تحت حجر المعصرة !!
(2)
في سنواته الأخيرة والتي أطبق عليه فيها النسيان
وفقدان الذاكرة
جلس في الشرفة الخلفية لغرفة
فوق السطوح المجاورة لقرافة المغربلين
وأخذ يطارد عصافيره الملونة وقططه المفحمة
وهو يلعب بالنيرنجات
- خلاص
لقد انتهى كل شيء بالنسبة إلي
لم يعد في جعبتي سوى الصراصير والقمل
ولم أعد أطارد سوى الذباب والعته
من على الجدران والنوافذ
وأعلك الزمن كاللبان
والمر-
لم يشأ أن يمشي في الشوارع التي كان يحبها بعمق

والتي استثمر فيها كافة زوارقه الغارقة
وبوارجه التي كان يعبر بها بعيداً عن الجاذبية
التي تندلق على سطح قبعته البردانة
ولم يشأ كذلك أن يتطلع إلى كل تلك البنايات الشاهقة
والتي كان يخبئ فيها ذكرياته المالحة
بعيداً عن أورام السرطان وتخثر الحنجرة
وهو يلاعب الشمس والظل بالعصا
كي لا يجرفه الموت الرنان
ولم يعد يعبأ كذلك إن كانت الحياة مثل حبةٍ من خردلٍ أو كيس خراء فادح
أو حتى قطعة من الجبن المدود والمنذور للسحالي
والخنافس.

(3)

فقط
في ليلة كان يَحبُك طاقيته الصوف فوق شعره المنكوش
ويجلس على مقهى زهرة البستان لكي يتذكر
كل أولئك الرفاق الذين جرفهم الزمن في تياره الفضولي الأملس
هناك في فصول محو الأمية
أو في حديقة الحزب الخلفية والتي أصبحت شبه خالية
إلا من طقم الأسنان
وأكوام الزبالة
وفي آخر الليل كان يجرجر قدميه المستسلمتين
إلى دار العجزةِ
والمسنين
في انتظار أن يأتيه ملك الموت
أو ما يسمى شرعـًا في علم اللاهوت الجنائزي بـ
قابض الأرواح
وهو يفرك يديه المبقعتين بالزمن ويقول
في البوتقة الواحدة الذهبُ يلمع والقش يدخن
الضربة الواحدة تحطم القش وتفصل الحَب

الزيت والعَكَر يمتزجان معـًا
إذا سالا تحت حَجَر المعصرة ؟؟

إسكندرية كفافي

على طشت الغسيل وجدته يبكي
إذ إن أمه أخذتها العاصفة
وتركته هناك في الميناء في حارة ليسبوس
وقريبـًا من البحر
وهو ينظر إلى المراكب الشراعية
وبوارج الإفرنج
وهي تعبر الأبيض المتوسط
إلى اليونان
فيما كان يكلم الله عن الحمى الصفراء
وداء الكلب
والنقرس
والمجاعة التي أخذت تنتشر هنا أو هناك في كوم الدكة
وحي العصافرة
والعطارين
بينما كان سيد درويش يمر من أمامه
على الرصيف المقابل
وهو يحمل بين ذراعيه المتوسطتين
بعود الموسيقي
ويتبعه
العمال
والفلاحين
من أبناء الإسكندرية
وكوم الشقافة
وهو يغني على رصيف الإسكندرية

كل يوم
- شد الحزام على وسطك غيره ما يفيدك
يا حلاوة أم اسماعيل في وسط عيالها
والحلوة دي راحت تعجن في الفجرية
والديك بيدن كوكو كوكو
يله بنا على باب الله
يا صنايعية -
الأمر الذي جعل كفافي العجوز يتعجب من هذه المدينة
التي لا تنام أبداً
والتي تغص بالآلاف
من الطليان
والإنجليز
واليهود
وبني جلدته من اليونانيين الأثينيين
وهي تقف على الميناء عصر كل يوم
في حي الأنفوشي
لتستقبل الأبيض المتوسط
في طرحتها الجديدة
من الكتان
والقطن
ولا تلوّح أبداً للكافرين
الذين لا يعرفون اللغات
بل ظلت تضحك للميناء وللبحر
ولكتائب الإسكندر الأكبر والمغول
وكليوباترا
ونابليون بونابرت
وقصائد هيباتيا
ودروس أفلوطين الرائعة
عن الواحد والمتعدِّد

وتلوح للنوارس وهي تعبر الأبيض المتوسط
على سعف النخل
دون أن تخلع ثيابها الرملية أبداً
أو ترتدى بدلة الرقص
الأمر الذي جعل كفافي العجوز
يرفض أن يغادر هذه المدينة إلى الأبد
وهو يقول لنفسه
لن تجد مدينة أخرى تضم رفاتك
وكرسات شعرك
ومنضدتك
ومعطفك البالي هذا
المدينة التي أجلست المتوسط على ركبتيها
وأخذتك في حضنها
وأخذت تدير قرص الشمس
على مياهها الإقليمية الزرقاء
وهي تصنع من الزمن كوفيةً من النوارس البيضاء
والعصافير
وتقول له
اصعد على السلالم الحجرية أيها الأعرج
فأنا والبحر هنا
قبل أن تولد
أنت !!
– يا ناس ياهو لما اسكندر
حكم على الدنيا ودبّر
اسكندراللي بجيوشه
الشرق والغرب عبيده
بسكندريه بيتباها
اسكندرية وسماها
يوناني ويحب الغاره

ورخره زيه أم مناره
جبار وعاشق جباره
طلع هواه
وفق هواها
فما كان من كفافي العجوز إلا أن ذهب
إلى بورصة القطن
وقدم استقالته إلى الجالية اليونانية
وقبل أن يتجاوز السبعين من العمر
مات في المدينة التي يحبها بعمق
الإسكندرية !!

عيد الفصح

أو تيطس في موكبه المترف إلى الساحل 70 م

في 29 آب / أغسطس عام 70 للميلاد
وبتوافق تام مع نبوءة النبي أَشَعْيا
جلس تيطس العظيم في موكبه المترف إلى الساحل
ونظر إلى الصحراء المترامية
وإلى القدس التي تحولتْ إلى مدينة أشباح
وجذاذات
وأوعية من نحاس محروق
وبيوتات دعارة
وعلب صفيح
وشوارع خردة
وأطلال عناكب
وقال
هأنذا الآن أستطيع أن أدلدل رجليّ
فوق كل هؤلاء الكلاب
والوحوش

من الأسباط
وأدعياء النبوة
وأن أمسحهم من الأرض مسحًا
ولا يمكن لأي مخلوق أن يفتح فمه ولو بكلمة
أن أجلس بين جنودي
وقواد ألويتي ونياشيني
وأفرد السماء على الأرض كالبساط الأحمر
وأبسط النجوم تحت رجليّ
كالمشابك
أنا صانع التواريخ
والمجد
وفي جيبي يسكن الزمن وأحركه كيف أشاء
وما إن استولى الرومان على القدس مدينة الرب العتيقة
حتى قاموا بحرق البيوت المتبقية
وهدّموا الجدران الدفاعية
المدينة حطمت بالكامل
– وبغير وعي زائف أو كلمة زائدة قاموا
بإحراق التماثيل والمنحوتات والمعبودات التاريخية
وجدران الهيكل –
والمقاتلون المأسورون كلهم طُلب إعدامهم أو أرسلوا إلى المحارق الجماعية
والمدنيون فوق السابعة عشرة
أرسلوا إلى الأعمال الشاقة
في المحاجر
والكلّابات
ومناجم استخراج النحاس والفحم
وتنظيف المجاري وإسطبلات الخيول
وتكسير الصخور من أجل إقامة الفيلات الأنيقة
على أحدث طراز

والحدائق الواسعة والمرصعة بالزجاج
والفسيفساءات
أما هؤلاء الأصغر سنـًا والمولودون حديثـًا
فقد تم بيعهم كعبيدٍ أو إماء
في أسواق النخاسة الكونية
وفي الدول المجاورة كتجارةٍ رائجةٍ
في فاس
وطشقند
والموصل
وقازان
ومصر
أعداد غفيرة من المقاتلين تم احتجازهم للموت
في القاعات الرومانية المفخخة
أو للموت كمصارعين محتملين وشرفاء
أو ليتم تمزيقهم إربـًا إربـًا
من قِبل الوحوش المفترسة
من أجل إثارة الحشود المتسكعة من أبناء روما المقاتلين
ونسائهنَّ الحسناوات
الآخرون أُخذو من قِبل تيطس العظيم
في موكبه المترف إلى الساحل
وفى كل بلدة كانت تجري عروض مسرحية ميدانية
كان يتعارك السجناء مع الحيوانات المفترسة
والأسود الجوعانة
أو ربما يجبرون على الموت غرقـًا أو شنقـًا
أو في معاركَ عنيفة
لترفيه المشاهدين وتزجية أوقات فراغهم
على أية حال تلك كانت مدينة القدس
في العام 70 للميلاد

فيما كانت زوجة تيطس العظيم كلوديا
ترقص وتغني فوق كل هذه الأشلاء
المتناثرة والجذاذات
في كل شارع
وفي كل زقاق وحارة
وفي داخل المعبد المقدس
كانت كلوديا أجمل جميلات روما
والإمبراطورية قاطبةً
تمارس الجنس الجماعي مع الجنود
وضباط الصف
والرقباء
وكافة قواد الألوية المنتصرة
وهي تغني لروما المظفرة
ولتيطس العظيم
بينما الرب واقفـًا يتسمع
ويسجل بتلسكوباته المعظمة
المقعرة منها
والمحدبة
كل ما يحصل هناك على الأرض
دقيقة
بدقيقة
ويدوّن ملاحظاته
وتعليماته
في كراساته اللانهائية الملونة
في انتظار يوم الدينونة الأخيرْ
آه
منكم يا حرّاس النظام
والخراتيت!!

بيليزيريوس

(قائد بيزنطي أمر الإمبراطور
جوستنيان بحرمانه من بصره
فأخذ يجوب الأزقة متسولاً
بخوذته !!)

أنتم أيها الشجعان
أيها الأبطال
أنتم يامن هناك
يامن تخوضون الحروب تلو الحروب
وتشعلون النار
في الأطفال
وفى الأزقة
انتهت الحروب الآن
وباتت الشمس على بعد قوس من الأرض
ولم يعد هناك سوى الألم
ما جدوى كل هذا الدم
أمس واليوم وغداً
إلامَ انتهت كل تلك الحروب
على أي شيء تفتشون في أدمغتكم الكبيرة الوسخة
ولماذا تقفون أمام الكؤوس في الكنائس
والأديرة وتناجون الرب
ليل
نهار
ها هي عصاي قد انكسرت
ورجلاي قد تحجرتا من التعب
فلتسو الأرض بالسماء

طالما أنه يغني هناك
يزعق
ويزمجر
ويربط في كاحليه الأبيضين الضحك
والنسيان
بكلابات من خشب
ومُحْرَقاتْ
حتى كلابه الوعرة هي الأخرى
ما عادت لتخيفني
أكثر من حشرة على المراحيض والأرصفة
ولم تعد صورته
التي يخبؤها على الجدران
والنوافذ
وبلاطات الكنائس المعلقة وغير المعلقة
والأدمغة الكثة للغة
سوى الوطاويط
والجعران
تلك الوطاويط التي يخوفون بها الأطفال في الليل
وغرف الدفن
وفى النهار يصنعون منها طائراتٍ ورقيةً
ويرسمون صورتها على الفقاقيع الوسخة
للعقل الإنساني
والعمولات المعدنية التي يشترون بها
حبات الفاصوليا
وحفاظات أطفال
لعل البحر الكبير الواسع
يبتلعه الحوت الأكبر!!

براد الشاي

قريبـًا
سننتهي من عمل كل هذا النهار
ربما لنتمكن من إصلاح إحدى قصائدك المعطوبة
على فردة حذاء
أو عجلة كاوتشوك
ربما يتطلب الأمر أن تجرها وراءك لسنين طويلة
من المشرق إلى المغرب
ومن المغرب إلى المشرق
وأنت في حاجة إلى الدواء
والتسلية
– أقصد تلك القصائد المعطوبة –
ولا تفكر أبداً في طائر النسيان العجوز
هذا الذي يحلق دائمـًا تحت قدميك
على أمل أن يصلحوا لها
نظارتيها المستعملتين
هناك في مستشفى المجانين
أو عين شمس التخصصي
لكي تعيد اكتشاف الجغرافيا والتاريخ
وكذلك الحمض النووي للمجرات
وبقية الكواكب
بين فخذي امرأة
ترقد عارية على سرير الوحدة
وهي تحدق جيداً إلى براد الشاي
وتشبه أحد المناطيد الورقية
في حكايات ألف ليلة وليلة
عندئذٍ تقول لنفسك وأنت تضحك من قدميك
المبللتين بماء البحر

من ذا الذي يجرؤ أن يقول
عن إحدى حملاته العسكرية المدججة بالميكروبات
والفحم
أن الرب يحتاج إلى عملية تجميل في الوجه
أو تغيير في الركبة الشمال
و إصلاح الفص الأيمن من المخ
كل ذلك فوق كرسي متحرك
من كراسي أصحاب المقامات الرفيعة
أو ذوي الاحتياجات الخاصة
والنسانيس.

دوائر عطية

حين جلس على طريق مكة
ذات نهار صائف من شهر آب
وهو يراقب سلسلة القوافل البرية
من الجمال والحمير والبغال
التي تعبر في رحلة الشتاء والصيف
مرة إلى الشام
وأخرى إلى أرض اليمن
في درجة حرارة قد تصل أحيانـًا إلى حد الجحيم
سأل
لماذا لم تكن هذه المدينة مثل سائر المدن
التي رآها طوال حياته
وأثناء عبوره في كل تلك الصحراوات المترامية الأطراف
من مكة إلى مدن الشام
ومن أرض نجد إلى صنعاء
هناك
حيث بساتين اللوز والمشمش

والتفاح البري
وعسل النحل
والزيتون
والرمان
والجنات التي تجري من تحتها الأنهار
والأنهار التي تجري من تحتها الجنات
من الشمال إلى الجنوب
ومن الجنوب إلى الشمال
ناهيك عن البنات الأسطوريات
واللائي كن يتراءين له في الحلم واليقظة
وهن يتخطرن في ملاءاتهن الحريرية
والمحبوكة على أجسادهن
كالتماثيل
والوشم
في دمشق
واللاذقية
والرقة مدينة عشتار المقدسة
وكذلك على أرض الفينيقيين العظام
التي تشبه عِرْق الجنة
والتي تتغطى بالحسناوات من النساء الفارهات
والصبايا
كأنهن اليواقيت والمرجان
أما عن الولدان الذين يمشون في الشوارع الخلفية أو
يجلسون على الأرائك كالتحف المزركشة
وفي أيدهم مزاميرهم ودفوفهم
وهم يغنون ويرقصون
مثل الحمامات
أو كأنهم ملائكة الرب وقد هبطوا إلى الأرض فجأة
وخيطوا الشمس إلى جباههم

بضحكاتهم التي تشبه حبات الكرز
وأجسادهم التي تتفوق على البللور
والزمرد
فحدث ولا حرج
الأمر الذي يمكن معه للرائي
أن يرى الماء وهو يتحدر من حناجرهم
إلى كافة شراييهم
كأنها الأنهار التي تصب في الأنهار
والبحر الذي يجرى إلى البحر
ولا يحتاج الرائي كذلك – إلى سعة أفق – وهو
يحدق في السماء الواسعة
ليتطلع إلى النجوم التي تلمع
والشهب التي تتنقل من مكان إلى مكان
إذ ذاك
تذكر حياته التي أنفقها فوق هذه الصحراوات
وهو يتنقل من بادية إلى بادية
ومن وادٍ غير ذي زرع
إلى وادٍ غير ذي زرع
خلف الأغنام
والزبل
وليس ثَمّ غير السحالي والثعابين
التي تبخ سمها وتبحث عن فريسة
والشمس التي تأكل صدره
وتجعد أرض روحه المرحة
وخلفته هناك كالخرقة
من الجوع والعطش
كذلك تذكر عمه الذي كان يلفه في بردعة
من الصوف
في ليالي الشتاء القارصة البرد

والذباب الذي كان يتنطط على السكك والشوارع
هناك في بطن مكة
ليأكل أي شيء و كل شيء
ولا يترك في الحُفَر سوى حبات التمر الناشفة
وتذكر أمه التي تركته في يد مرضعة أجنبية
على ما يذكر كان اسمها حليمه
وظل لسنوات لا يعرفها أو يتذكرها
إلى أن ماتت في ليلة جهنمية بالتيفود
وتذكر كذلك الدم الذي كان يسيل للركب بين القبائل
من أجل جحش هارب
أو بئر فارغة
أو حتى نخلة ضاوية
وأن السنوات التي أنفقها في هذه المدينة
سوف يأكلها الرمل
ويسفها الهباء
واللامعنى
في قلب كل تلك الصحراوات
التي تغص بالعفاريت
وقردة البابون المفترسة
إلى أن رأى ذات ليلة ذلك الحلم
الحلم الغريب الشامخ
والذي ظل يطارده لليلتين كاملتين
كأن ملاك الرب الحارس
يشق صدره
ويخرج قلبه من جوفه الذي رآه كاللؤلؤة
وأخذ يمص منه الدم حتى أصبح القلب
كالبذرة
ثم أخذ يغسّله بالثلج والبَرَد
وهو مغمى عليه

إلى أن أعاده إلى صدره الذي انشق إلى نصفين
و أخذ ينبض كالذبيحة
وأمره أن يصعد إلى الغار هناك في أعلى الجبل
لمدة أربعين ليلة
تمامًا كما فعل موسى على الطور
وهناك سوف يتجلى له ملاك الرب الحارس
كما تجلى لموسى وإبراهيم وإسحق ويعقوب
من قبلُ
وقال له
لك ولنسلك أعطي كل هذه الأرض
وكما أمر نوح النبي أن يصنع سفينة
وتجري في البحر بأمره
من قبل أن يأتي الطوفان
أنت نفسك سوف تكون طوفان كل هذه الأرض
وكالسفينة التي تبحر فوق الرمل
سوف تلقى بقلوعك
ومراسيك
كلماتك سوف تنحفر على الصخر
وضحكاتك سوف تحتفظ بها الريح
كل ما تقول أو تفعل
سوف يردده العالم من بعدك
وسوف تصبح أسطورة من الأساطير
التي تغير وجه التاريخ والزمن
سوف تقعد بمفردك على دكة خشبية وتحت عمود الخيمة
يضيء وجهك
وإليك سوف يشير كل عابر سبيل
الآلاف سوف يهتفون باسمك
والملايين سوف تتبعك إلى أي مكان تذهب إليه
بأنيابك

وأظافرك
سوف تصبح ملح الأرض وسوف تنحت جوف الصخر
و من كل ثقب إبرة سوف تنفذ
بكلماتك لا بعصاك
سوف تغير وجه الكلمة
الكلمة التي هي أنا
لأنه في البدء كان الكلمة
وفي الختام كذلك يكون
وسوف تصنع أنت الآخر فُلْكـًا
ولكن هذه المرة من الفقراء
والمعوزين
لكي تبحر فوق الأرض
التي لا تصلح فوقها أي سفينة
وأن الرب لا يكرر نفسه
ولكن لا تجرب الرب إلهك الحي أبداً
وسوف تأتي الجنات والأنهار
إلى بطن مكة
وكذلك سوف تأتي الحسناوات من النساء
من كل فج
لكي يطفن حولك
ويتمسحن بالتراب الذي كنت تمشي عليه
ويشربن من نفس البئر
التي كان يشرب منها قبلك إسماعيل
وأمه هاجر في قلب الهاجرة
يطفن حولك
وهن يضربن بِخُمُورهن على جيوبهن
وسوف تتحول هذه الأرض في يوم من الأيام
إلى معجزة من معجزات الرب
وإلى جنة من الجنات التي تسحر اللب وتدير الرأس

تحت كل هذه الشمس الحارقة
لكي تكون هناك معجزة في قلب الصحراء
وبين كل هؤلاء الوحوش
من الأعراب
والبدو الرحل
سيختفى أثر الجمال في الرمل
وتحط الطائرات
والحوامات
وستفيض الأرض بالنفط
بدلاً من السمن والعسل
أو المن والسلوى
وسوف يقصدها كل عارف وصاحب تجارة
وسوف تعج الأرض بالصلوات
واللبن
أرض خير تكون
وتحت سماء تحرس وترعى
ومثلما تجلى الرب لموسى فوق جبل سيناء المقدس
من خلف العليقة
سوف يجعلك الرب آية للناس
لك
ولنسلك من بعدك سوف أعطى هذه الأرض
أمةً تكون وحدك
وأمةً تبعث وحدك
وخلفك مدن وشعوب
تسير في نفس الطريق الذي تسير فيه
وسوف يقتتلون على كل كلمة تخرج من فمك
ويؤلون كل حرف يقول به لسانك
هنا أخذ النبي يفرك عينيه
ويصرخ في قلب الغار

أين أنت يا رب موسى
وهارون
وما هو شعبي
وامرأتي عاقر
ولم يبق لي ولد على الأرض ليرثني!!

جراند كافيه

على نفس المقهى جلست من عدة سنوات
وعلى نفس المقعد الذي لم يتغير لونه
شربت شايا بالنعناع
والسكر
وأكلت شطيرة من البطاطس واللفت
وأخذت أدخن النرجيلة كسائح ممتقع
والتي كان دخانها يعلو إلى السقف وهي ترسم على الحيطان
ملائكة
وعصافير وحبات سجائر
وأنا أحدق إلى الشمس في الزوال
هنا قد جلس سمير حويدق ذات ليلة
وهو يراجع حسابات البورصة
وآخر أسعار الأراضي
والشقق المفروشة
وهنا أخذ سيد جامع يطارد الفراشات
والنمل
وهو يضحك من عامل البناء الذي سقط من على السقالة
مرتين في يوم واحد
وهنا صفع سيد عبد الحميد امرأته
التي جاءت بأولادها السبعة لتطالبه بإيجار الشقة
وثمن الخبز

ومصاريف المدارس
وهنا ضيع رجل مفاتيح شقته
وبات ليلة بكاملها
تحت السماء الملبدة
بالغيوم
وقد طلق امرأته بالثلاث
وهو يلعن اليوم الذي صارت فيه امرأته
هذه الغسالة الكهربائية
وهنا جاءت امرأة مومس وصويحباتها لكي تعرض
بضاعتها المزجاة
على الرجال
لقاء عدة قروش
أو زجاجتي بيرة
وهنا مات عامل المقهى فجأة
وهو يقدم الشاي
إلى زبون أخرس
ونقلوا جثته إلى الأرض المجاورة
وغطوه بالمشمع
وعلب الصفيح
في هذا المقهى
وعند هذه الظهيرة بالذات
لم أت إلا لأن أترك ذكرياتي الشامخة
للذباب
والعتة
وأنا أحدق إلى صورة في الجدار
لامرأة وقفت في الشرفة وهى تلوح لعصافيرها
التي راحت تزقزق لطير طليق
وأنا ألمُّ الزمن في جيبي
وأدلقه في أول مقلب زبالة

وأقول لنفسي
لقد شهد هذا المقهى المنحوس عدة حروب
وشفاعات!

سانت تريزا

في شبرا ترقد كنيسة الرب
كعملة ذهبية
على جدران الزمن
سانت تريزا القديسة التي وهبت جسدها
لكل عابر
وقالت : الجسد للذة
ولا شيء مقدس سوى الروح
وأن الله لا يسكن بين المقابر
ولا يقيم بين الأضرحة
وإنما يسكن في اللامكان
هنا
أو هناك
حيث البحر الكبير الواسع واللامتناه
لشرنقته الكبيرة لفوهته المفتوحةِ
حيث الزمن هو اللازمن
واللامكان هو المكان
واللازمان هو الزمن بالحقيقة
أو ربما يسكن في برج من أبراجه الشامخة الرفيعة
حيث السماء التي تمتلئ بالنجوم والسحب
والملائكة المقربين
ولا يمكن أبداً للشيطان التعس أن يقترب منها
ولو لشعرة
وأن الله لا تدركه الأبصار

وهو يدرك الأبصار
ولا أحد يمكن له ان يشاركه في هذه الوحدة السامة إلا سمك الوحشة والابن المصلوب
أما عن الروح القدس
فلا أعلم أين يسكن
ولا ما هو بالأساس
وإن الصورة دائماً تسكن في الصورة
كما يسكن الضوء في الضوء
وإن العالم ما هو إلا الحجاب الأكبر لذاته
تماماً وكما يتخفى الجسد في الثوب
وكما يحجب الثوب صورة الجسد
أما الروح فهي تلك القوة الدافعة لكافة العوالم
وبملاعق النشوة والتراب
ظلت تتقلب بين أذرع الرجال
فمرة يأتونها من أمام
ومرة يأتونها من الخلف
ويتداولونها كالعملة الزائفة
إلى أن أصبح الجسد كالخرقة
وأخيراً قررت أن تنقي الثوب الأبيض من الدنس
وأن تبحث عن الخشبة التي في عينها
لا عن القشة التي في عين الآخر
فيما أعطت الرداء كله
لبائعة جوافة
وفي ليلة باردة
قررت أن تذهب إلى المسيح بمفردها
ومعها كافة القطط والكلاب التي
كانت تربيها على السطح
لتشاركها السرير

والأورجازم
وهناك
وعلى جبل الزيتون قابلها الرب
وهو يقول : لن أغفر أبداً لخاطئةٍ
فقررت أن تعود إلى شبرا بالذات
وتفتتح كنيسة للمغاربة
إلا أنها وبعد طول انتظار
قررت أن تكون
محطة مترو
وفي قلب دوران شبرا
حيث باعة الروبابيكيا
وعربات الفرولة
التي يجرها الذباب
فيما لا يقف على الأرصفة
إلا صف طويل
من الذئاب البشرية ؟!
القديسة التي ظلت تلعب الحجلة
وتتنطط مع القطط و العصافير
وتمسح شعرها بالدهن
وزيت الخروع
والكافور
وفي كل ليلة تضع على رأسها تاجًا من الشوك
لكي تجرب لحظة الصلب الأخيرة
وتقف فوق رؤوس المسامير وهي في النزع الأخير
إلى أن صعدت إلى السماء السابعة وحولها جوقة من الملائكة
فوق سلالم من جريد النخل
وبكاء الأمهات
والخرْوَع .

خان شيخون

إلى
جمالات عبد الحفيظ

(1)

تنسدل الأنامل
يأكل الشِّعر شكل الشجرة
تلعب العصا المرجيحة
زغلول يضرب الأرض بالفأس
والزمن راكد
وما ثم فرق .

(2)

سهول الأناناس
تلك التي يرتفع زئيرها على الطرق
ترقد هناك
مضرجة بدم الأمس
ومشاغل السماء العنيدة
ولا أثر حتى لنملة مقلوبة
تحت سفح جبل.

(3)

من يأخذ الروح من سباتها السهران على شفا جُرُف هار
ويدع العتمة تتمشى على ساحل الذاكرة الخربة
هناك إنسان فقد الذاكرة
وتبوأ شجرة الأمل
بلا منازع يطل الله على الكون
ليكشف عن ضراوة الربيع
الذي يصهل في الكهف
وبمفرده يأكل الذبيحة.

(4)

في ربيعها الأسود جاءت شجرة التوت
إلى الساقية العمياء وشمرت الأصابع
الساقية كانت مهجورة
وتلعب بالشص مع تل من الفئران والقطط
قالت: أما آن لكِ أن تنقلي الماء
إلى الأرض أيتها الكسلانة
قالت الساقية المهجورة
أنا هنا ألعب الحجلة
مع العصافير في الليل
وبالنهار أغسل ثيابي القطنية المبقعة
بحباتك الملونة
وأتنزه وحيدة
على الكوانين .

(5)

شهر وأسبوع ويوم وثانية
وأنا أتنقل من مقهى إلى مقهى
أطارد الكلمات على الأرصفة
وأسهر أنا والحروف حتى منتصف الليل
دائمًا
دائمًا
الكلمات تهرب مني
مثل وحوش متناطحة
والحروف تنفصل عن القواميس
مثل بقر جامح
ولا أجد في فمي غير غسيل الأطباق
والملاعق
ووسخ المائدة
وأظافر المارة التي يتركونها لي

في فناجين القهوة
وأنا أفعص الزمن
تحت أنيابي
مثل قملة
وأقشره على سطح المنضدة
لكي يشرب من نفس الكأس
أو يجرب اليأس.
(6)
فتشت في دولابي القديم عن صورة لك
أو لتلك المرأة التي غالبًا ما كانت تأتيني في الأحلام
في صورة فراشة
أو عين شمس
وأنا أهشها من الذاكرة
مثل كبش أملح
كانت صورتها بالفستان الأزرق
ونهدها البرتقالي اللامع
وضحكتها الخضراء
وردفها الصيدلاني الأملس
هي التي تتبعني إلى السرير في ساعة الأورجازم
وعندما كنت أصحو من النوم
كنت أجد نفسي
مثل برتقالات في فم الملائكة.
(7)
عنقود عنب كان صدرها
تفاحة آسيوية كانت شفتاها
بلبلاً إفريقيـًا
كانت نظرتها
وأخيراً كانت تقول لي عن نفسها
وعندما نأوي معـًا إلى الفراش

أرعى في خمائل الطيب
وعلى جبال المرّان
أتنزه بمفردي
أنا والسواسن
ولا أعطي نفسي سوى لعاصفةٍ
إلهي
متى تأخذها الغفوة
لأنام!!
(8)
في طرحتها السوداء شبكت قمراً
وخرجت من الدار
كان الوقت ليلاً
والنجوم تتسكع على الطرقات
وهي تتخفى في كوفية شيخ القرية العجوز
المرأة التي وهبت نفسها للحكايات والأساطير
وأوت هناك إلى الكهف
لكي تقابل الله
على سفح جبل
وتنتظر حبيبها الذي كان يجمع حبات
التوت
والجميز لكي يأتيها الربيع
في بدلته الخضراء
من أجل أن يرعى معها الماعز والأغنام
في حديقة الأغراب
ويجلسا معـًا على الأرض تحت شجرة
جميز
ويشربا من عين الكوثر
ويثرثرا معـًا عن الله
والتحاريق.

(9)

ألف قبلة في الهواء
إلى ألف شبح
ولا أثر هناك لتلك المرأة التي تلفلف الجسد
بالمحاريث والرغوة
في متاهات اللذة
ثمة مسمار ويغرس أنيابه الحادة
في فنجان الشاي
الذي أدلقه على الطرقات
مثل خبز أسود
ولا يبقى غير دمي الذي يتقافز
وبكاء عصفور على الغصن
يشرب وأئن .

(10)

في هذا النهار
قررت أن أراقب الغيوم
كانت الغيوم أحصنة وتركض في الحقل
عبر السماء المحملة أصلاً
بالنجوم
ونفايات الأرض
وبقايا لطع الخريف .

(11)

أمس أمسك أبي الشرشرة وقال :
سأجز عنق هذه الشجرة الملعونة
ضحكت الشحرة ومالت على الغصن
وقالت : لن تأخذ مني أي شيء أيها الشرير الأحمق
هناك سمكة وتلعب في البحر
قد ضحكت لي
وأنا عارفة بمواعيد الفجر .

(12)

ناريمان

التي أحبها القلب مثل طفلة

على دكة المدرسة الخشبية

وهناك تحت شجرة الأضاليا

ظل يغنى إلى الفجر !

ناريمان

ما زلت تجلس على نفس المقعد الخشبي

وهي بمريلتها القطنية

في الصف الخامس الابتدائي

بعينيها الخضراوين

اللتين تتفوقان

حتى على نضرة الربيع

وصوتها الذي يسكن في شمال الذاكرة

مع جبال الروح

ومدرس الفصل الذي ترك حصة الرياضيات

وأخذ يجري وراءها

وهي تطارد الفراشات

والفل البلدي

ناريمان

ما زلت أتذكركِ أنت أيتها الحبيبة باللذات

حتى وأنا على مشارف السماء

وصوت عينيك اللذين يغسلان ثآليل الزمن

حتى عن المخيلة التي راحت تتآكل

بفعل الطبيعة الشرسةِ

والزنزلخت

ناريمان

ما زلتِ تلك اللؤلؤة

التي تبحث عن البحر

في فنجان القهوة
أو تحت عجلات سكة حديد!!

جمجمة اسبينوزا

صلواتك
التي لا تصلح لإيواء فردة حذاء
في رجل كلب ميت
تتعالى إلى الرب في الليل
مثل خيمة بني إسرائيل والتي كانت في يد هارون بن عمرام
وظل يحملها في التيه
لمدة أربعين سنة
أو مثل أيقونة مجوفة
من عسل
وبرطمانات!!
ولأن الرب لا يسمع عادة للفقراء
والمعوزين
وأبناء البرابرة
لقد أغلق في هذه الساعة أيضـًا
دكانه الذي كان يدير منه العالم
ودهاليز قصره
وأمر حراسه وملائكته أن يكونوا شديدي اليقظة
ولا يسمحوا لأي حشرة من حشرات الأرض
أو أي عابر سبيل
من مَلِكٍ
أو شيطانٍ رجيمٍ
أن يقترب من أبواب حصونه المصفحة
وجناته الرائعة
والتي يسكن فيها بمفرده

ولا يحيط به سوى الحسان من الحور العين
والولدان المخلدين
حتى يخرج الجمل من سَمِّ الخياط
ودخل لينام
إلى أن تقوم الساعة
أو ينفخ ملاك الرب
في البوق!!

ثمستوفيس 525- 418 ق. م

قلدوه بالأوسمة والنياشين
أعطوه البحرين الأحمر
والأبيض
ذهبوا به بعيداً في مراكب الصيد
وجاؤوا له من آسيا الصغرى
بأجمل الجميلات
صوفيا
التي لا تضاهيها امرأة فوق كل هذه المعمورة
وحلّوها بأساور من ذهب
ويواقيت
ومن خلفها كانت آلاف الجواري
والمغنيات
والكهنة وعازفو الدفوف
والمزامير
وعندما أعتلى العرش للمرة الأولى
قال في خطبته الوحيدة
والتي كانت بمثابة خطبة الوداع
أختلط الحق بالقوة
واختلطت الثروة بالسلطة

وسارت العدالة كلمة منبوذة
وجافية
الآلاف من الأنبياء الكذبة
يدرون في الشوارع
في انتظار المخلص
ولا إله هناك ليتحرك
في الصبح وجدوه مقتولاً
والدم يبك من شفتيه
وإلى جواره صوفيا الغانية اللعوب
وفي قدميها فردتا حذاء من أذربيجان
وعلى سرتها وشم للإله
توت عنخ آمون
الإله الذي كان يحمي حياتهم
ويحفظ سلعهم
ويدفع عن ماشيتهم كل طارئ أجنبي
وكان رضاه رحمة للناسِ
وغضبه نقمة
ومتلفة لهم
وجدوها ميتةً
بينما ذهبها لم يمس
وهي جد عذراء
وشبه عارية!!

عزيمة

لا
لن أستسلم لليأس
سأغني
نعم سأغني

سأغني للبحر بنفس صورة السماء
والتي تلبس جلبابين على جسد واحد
وهي تتأرجح على جناح وردة
سأغني للسماء
وهي تنحدر على صرة البحر
مثل عصفور وينقر في الصخر
وسأقول للهواء
سلاما أيها الهواء المشاكس مثل قبلة
لسحلية
وهو يمر على ساقيك المعطرتين
سأقول سلامًا للربيع وهو يقف على شفتك السفلى
ليتطلع إلى النوافذ والجدران
ويتذكر النجوم
والكواكب
ويأخذ في البكاء فجأة
وأنا أهتف من فرط الرغبة
يا لك من امرأة
ومعطلةٍ
سوف أخلع عني ملابس الحزن
وأفرد صدري لكل طائر يعبر
إلى عين الشمس
وسأنتظر حبيبتي طيلة النهار هكذا
إلى أن تأتي
وسأتناول عشائي بمفردي
أنا ودموعي التي أتركها على الطاولات والمقاهي في الليل
ليكنسها الكناسون
وعمال المراحيض
وسأرسم صورتها على الدواليب
ونوافذ العمارات

والسحب
وسأقول لنفسي
ربما عطلتها إشارات المرور
أو مؤشر البورصة التعس
وسأهتف في وجه الزمن
أيها المراوغ اللص
أغرب عن وجهي بعيداً
أو ادخل إلى كهوفك الليلية الملآنة
بالعناكب
والمخللات
أو أغرق في أنبوبتك العمياء
فأنا
لن أخاف من الموت بعد الآن
وسوف أجلس على نورج من نوارج الرب الرنانة
وأقول لنفسي
أليس يكفي أنني قد عشت
ورأيت الشمس وهي تخرج من خلف الأفق ذات مرة
وتخلع ثيابها اللازوردية بجسدها الشفاف والمثير للفتنة
وتتخفف من ملابس الإحرام والنوم
لتنزل إلى شاطئ البحر
لكي تستحم
أو تبحث في الأعالي عن الصدف و اللآلئ
وهي تهب للسماء الراسخة في الممر
ضحكتها الخضراء!!

لما رحلت أمي

لما رحلت أمي
جلست إلى حائط وبكيت

أدرت وجهي للسماء
وقلت : لماذا ؟!
كان أبي الذي عاد هو الآخر من الحقل
وعليه جلبابه الصوف الذي امتلأ بالروث والقش
ويجلس منزويـًا في ركن البيت
وهو يرنو إلى حماره العجوز
وإوزه المنحرف دائمـًا عن العادة
ولا يجد حتى من يحلب له شاة واحدة
ليشفي ظمأه
أو يبلّ ريقه
وظل ينظر إلى حماره الذي صار ممتقعـًا من الحزن
وقد امتنع عن الأكل ثلاث ليال سويـًا
إلى أن مات
ولم أشأ أن أبحث في غرف البيت الفارغة عن أمي
ولم أسأل عن ثيابها القطنية المبقعة بالزيت
والخروع
وأساورها المدلاة على الحائط كعلبة صفيح
وبعض أغنياتها التي تركتها على الكانون
والفرن
ولاعن شالها الأرجواني الذي استلفته من جارتها الشابة
وأمها العجوز
لتذهب به إلى مدينه نائية
وعندما سألت أين ذهبت أمي
قالوا لي:
إنها عروس السماء في هذه الليلة
وقد ذهبت إلى الرب
إلى مدينة الموتى المقدسة
في رحلة لا تعود منها أبداً
لتجلس هنالك على الأرائك المصفوفة

والنمارق التي تغص بالولدان المخلدين
وأنها قد صارت حورية
وتمسك في يدها بالمزامير والدف
وتحيط بها الملائكة من كل جانب
وأن ملاك الرب الحارس جبرائيل قد خصص لها مقعداً ثابتـًا
وقريبـًا من الرب ذاته
في انتظار أن تتعلم الرقص والغناء
على ماندولينه الضخم
لأن الرب الذي يصير شاهداً على كل شيء
سريعـًا
وبطرفة عين
يضع أمام الذاكرة ما يقنع الضمير
أو يعاقب عليه
أمي!!
أمس
طارت الحمامات كلها من البيت
ولم يبق في صوامع الغلال
ولا حبة قمح .

كراسات اللامعنى

لم يكن يعرف أن الشمس يمكن أن تتنكر له أو تبصق على رقبتهِ
وأن القمر سوف يظل لليلتين كاملتين عالقـًا بثوبه
وأن إسحق ذلك الضرير الأعمى
سوف يمنح بركته لأخيه الأصغر يعقوب
لقاء فخذين من الماعز
وقنينة خمر
وأن الجميلة رفقة زوجة إسحق
سوف تشترك هي الأخرى في المؤامرة مع الرب

بعد أن تغطيه بجلد الماعز والأغنام
لا لشيء
إلا لأن يعقوب كان الأكثر وسامة من أخيه
وأن زوجة أخيه عيسو كانت أكبر بغي
في أرض كنعان
وأن ما تختاره الأم
سوف يختاره الرب كذلك
وهكذا
ظلت أسطورة الرب المباركة
تنتقل من جيل إلى جيل
و من جبل إلى جبل
إلى أن استقرت في قلب أورشليم
مدينة الرب العاصية
وإلى أن دخل يعقوب إلى أرض مصر
واستولى يوسف على أرض جاسان ومخازن الغلال والزيت
أما فوطيفار
فقد أعطى ليوسف
امرأته محبوبته
وظل عاطلاً عن العمل
إلى أن مات.

محطة مصر

أنا
محاصر مثل بصلة ناشفة
ومركون على الرصيف مثل كلب يعوي
من يعبأ بي
القمر!
الشمس!

النجوم!
لا أحد
سوى روحي التي تتآكل بفعل الإهمال والندم
أقضم الفراغ مثل ثمرة حامضة
وأتقشر على الأرصفة مثل مصاب بالصدفية
أفسحوا لروحي طريقًا أيها القتلة
فأنا مقبرة كونية
في جوفي تسكن القطط الشرسة
والكلاب الضالة
وربما عقارب الساعة
أيضًا.

الطائر الأعمى

في البناية المجاورة للمقهى الذي أقيم فيه
طيلة النهار
يقف طائر أعمى
فتلقى إليه الشبابيك بتحياتها الإسفنجية
ويترك له المارة على الرصيف
عملاتهم التي تشبه الدبابيس وقطع الشطرنج
وفي الليل يضم الطائر جناحيه
ويقف شابكًا الوحدة
في براد شاي
وعند الفجر
ودائمًا عند الفجر
تأتي أنثى الطائر الأعمى
لتقلده بوشاح
من حرير أبيض
ولتطعمه بفمها البردان

وتفليه من الخيالات
والأساطير
التي ربما تكون قد علقت به
أثناء عمل النهار
وربما، تبدل له ثيابه القطنية التي وسّخها المارة
وبقّعها بحبات توته السوداء.

أصدقاء

في الحانة التي تقف على حافة الصحراء
كنا خمسة
الأول قال : أستطيع أن أجرجر السماء
من رقبتها
الثاني قال : أستطيع أن أجعل الشمس
تسكر معي على هذه الطاولة
بالذات
الثالث قال: في زهرة البستان
هناك من يلعب الحجلة الآن
داخل إطار سيارة فارغ
ويدخن النرجيلة فوق فنجان
شاي
الرابع قال: يومًا ما سقطت في بئر
في قلب هذه الصحراء اللعينة
وظللت هناك ألف سنة
والتقطني بعض السيارة وباعوني
في سوق الرقيق بمصر
كعلف زائد عن الحاجة
وهأنذا أقلب طرفي في السماء
فلا أرى سوى قمر أسود

وأفلي رأسي من البراغيث
والقمل
وأسكر – معكم – سكرة
جهنمية
أيها السفلة!!
أما الخامس فقال : لا أملك إلا نفسي وأخي
وأمي تبيع الدقيق المسروق
في سوق الخردة وننام معـًا فوق أسطح البيوت المجاورة
لمنزل قرب جامع الرفاعي
فيما لم أعد أصلح لأي شيء
سوى الضحك والنسيان
وممارسة اللذة في بئر السلم
وهأنذا الآن أمامكم
أقشر البيض الفاسد
وأبيع اللب والفيشار
في سوق النخاسة
الكوني
هذا.

عجلة الحظ

انسي يا عجلة الحظ السيئ
انسي
واتركيني – بمفردي – على هذه الطاولة
ألاعب الفراغ بالأرجل
والأعضاء التناسلية لملك الذباب البستوني
وأختار زهرة نردي الوحيدة
في حقل السبانخ واللفت هذا
وحولي تقف الأشجار شامخة

والسماء تصب رخامها الأبيض
في الطبق
الذي أتناول فيه طعام إفطاري
أرفع ذراعيّ لأحيي
الطاولات
والمقاعد
والقطط الرابضة هنالك في الظلام والضوء
وأهتف للأرصفة المجاورة
والبنايات التي لها شكل المشابك
وأهب للأشجار البلاستيكية
سلام روحي العميانة
وأرغفة خبزي الناشفة
في ساعة الظهيرة العدوة هذه
من يأتي ليقول لنا أي شيء
عن النهاية المأساوية
من هذا الفيلم
الدراماتيكي!!

القصائد

سئمت من كتابة القصائد
زهقت من عمل الشعر
القصائد خائنة
أو قليلة الأدب
متمردة
وبنت ستين كلب
تنفجر في الرأس
أو في المخيلة
أوه ...

أيتها القصائد اللعينة
لو أملك فأسًا لكسّرت رقبتك
وجريت خلفك في الشوارع والسكك
وأسلمتك إلى يد الحلاق
ليقلم أظفارك
أو يقص لكِ شعر رأسك
أو لحطمت أضلاعك
وحفرت لكِ
نفقًا في الأرض
أيتها القصائد اللعينة
تصبحين على خير
فليس معي غير زمزمية ماء
وأنبوبة بوتاجاز
وأنا أنتظر الأتوبيس
الذي سيقلني إلى محطة الرمل
لأشتري لأمي دواء
الروماتويد!!

درب البرابرة

في درب البرابرة حيث يسكن الصاغة والنحاسون
وضاربو الودع والدفوف
وبائعو الأغنام والزبل
أطل الله على العالم ذات مرة
وأمسك في يده بخيوط الكرة الأرضية
التي أخذت تتفسخ بين المحيطات
والأودية
إلى أرخبيلات
ومسابك

وقال : هنا سوف أقيم مسجداً
وهناك سوف أبني كنيسة
وفوق هذه الصخرة بالذات
سوف أبني خيمة هائلة للرعاع
وسوف يأتي الرجال والنساء من كل فجٍ
ليشهدوا منافع لهم
– هنا في درب البرابرة هذا –
ويطالبون بإرثي في الحرية والعدل
غير أنني لا أعطي إرثي لأحدٍ
سوى لنملةٍ مقلوبةٍ
فوق جبلٍ غائم
على سطح الكرة الأرضية
وامرأةٍ وهبت نفسها لملاك الرب الحارس
والذي ظل يتصارع لليلتين كاملتين
مع النبي يعقوب
ودون أن يسفر الصراع عن أي شيء
ولرجل ظل يسكن في درب البرابرة هذا لمدة أربعين سنة
وأخيراً وجدوه مشنوقًا بالحبال على جذع شجرةٍ
أمام منزل سيدةٍ كانت تسكن في حي النحاسين
ومن دون أن يراها حتى لمرة واحدة
أو يقول لها كلمة!!

رجل من تلبنت ابشيش

عرفته حين كان يربي الماعز والأغنام
فوق السطح
وشرب اللبن الرايب مع العصافير والنمل
وفي الصبح كان يفتح شرفته للفجر
ويجلس على عتبة الدار

ليقرأ المعوذتين
وسورة البقرة
في انتظار أن يأتيه مقاول الأنفار
لكي يحل ضيفـًا على الطاحونة
أو اليأس
وهو يربط حزامه الصوف حول وسطه
وكانت أمه العمياء
جازية
تجلس في وسط الدار لتتحسس المصابيح والعتمة
أو سلة الخبز
جاب القرى والنجوع بحثـًا
عن العمل عند أي أحد
لقاء قطعة خبز أو حبة فاصوليا
ولما لم يجد أحداً يطبطب على رأسه
ظل يدور في شوارع القرية وهو يحمل
سلة باذنجان فوق رأسه المملوء
بالدمامل
والقروح
وكان إذا حل الليل يلعب الحجلة
مع الكلاب والقطط في الشوارع
وتحت مصابيح الكيروسين
إلى أن فقد بصره تمامـًا ونهائيـًا
ولكنه ظل يبحث عن الفجر
الذي خبأ الوردة
في سرواله!!
في الوقت الذي كان فيه نجيب محفوظ
يتحدث عن الأعمى
طه حسين
في ممر بهلر

وتحت مصابيح الشوارع
الهاربة.

درية شفيق

فمها كان يشبه عنقوداً من العنب
أو تفاحة باذخة إلى جوار سلة خبز
وحبات فراولة
عينها تملك ذهبها الخاص
الذي لا يخضع للمعدن
ولا ينتمي لآليات
الحَفْر
صدرها كان يشبه سفينة غارقةً وثدياها كانا قوسين من الذهب
الأحمر واللغة المنقوشة على برج بابلٍ
والمحيطات التي تغصُّ بالشعب
المرجانيةِ
وأسماك الزينة!!
على معصمها ترقد فراشة ذائبة
في شفتيها الخلخاليتين والخاليتين
من الكذب!!
لا تحدثوا الربيع عن فستانها الذي اشترته صدفة
من حقول البرسيم والقمح
ولا تحدقوا جيداً إلى القمر
فقط انظروا
إلى ساقيها المعجونتين من الذهب
والكمنجات
وإلى ردفيها اللذين ينبعجان
من على دكة الفجر العارف
هذه المرة

على سرتها لا ترسم غير شمس لاهبةٍ
ولا تسكن سوى في الصعيد الجواني
ذات نهار صائف من شهر برمهات – وجدوها ميتةً –
وقد سقطت من شرفتها في حي الزمالك
حيث حيتها الأرامل
والمحجبات
هذه الأيقونة التي تنسكب في النيل
وبجوار برج القاهرة
تضحك النجوم دائمـًا لنظرياتها الفلسفية
في الأورجازم
وتنوع الطبيعة
أكيد
لم يكن جورج حنين يعرف أنها
سوف تتعلق في كم سترته البردانة
وهى اللامبالية دومـًا بالشعر
أو بول فيرلين!!

أنا تعبت من الغناء

جريت وراء الله في السكك
تابعته في قاعة المحاضرات
أسكنته في غرف القلب وهو يوسع
الشرايين والأوردة
ويسكن في الوصلات الكهربائية ما بين
العين والدماغ
قرأت عنه في ترجمان الأشواق
وحدائق النفري
وصعدت خلفه إلى جبل الزيتون
وحواري القدس العتيقة

هناك في مدينة أريحا
وبيت لحم
وعلى جبال حاج عمران
ومندلي
دخلت إلى مَدْين
ومنها إلى مدينة أفلاطون المقدسة ذات الألف راية
حتى تشققت قدماي في السكك
وانحلت أربطة نفسي
صعدت إلى غار حراء وأخذت أردد الصلوات
حتى انفطر قلبي
حافيًا توضأت وصليت
إلى أن بُح صوتي
شمرت ساعدي وقلت أقرأ فصوص الحكم
وكتاب الفتوحات
أيقظني في الليل والنهار
وأنا أرتجف من البرد
وأدخل في كهوف الوحشة
إلى أن جف حلقي
طاردتني الكوابيس بالليل والنهار
وأنا أفتش عنه في الكهوف والمغارات
وبين أعالي الجبال تركت مناراتي
وأوردتي
سال دمي على الأرض
وانفرطت أجولة ملحي
حتى على الحجارة
والشوك
بقعت بدموعي كافة مخداتي
وانغرزت في داخل روحي شوكاته
المعدنية

ألف مرة خبطت رأسي في الحائط
حتى تشججت أوردة نفسي الملآنة تعبا
مسحت كافة دورات المياه العمومية
وغير العمومية
وقلت : أذل روحي عساك أن تمر
أو تهدأ
فلم أصل إلى شيء
سوى سراب بقيعة
يحسبه الظمآن ماءً
لمَ لا تأخذك الشفقة بي أو ترحمني
أين هي قطعانك وأنا أسير خلفها
في السكك
أين هي محلاتك أو شركات بيع مصنوعاتك
فأعمل بائعًا لقمصانك
أو لشرائعك
لا فرق
بلل شفتي بكلمة منك
خذ بناصيتي أصابني اليأس
ماذا أفعل – أنا – بطواحينك التي تدور على الأرصفة و المعدات
ليل نهار
ولا تطحن سوى عظام روحي
وعلى سنديانة نفسي لا تتوقف
إلا لتعيد طحن أوردتي
وتجرح عنق كلماتي
حصاي مبلل بالدم والخديعة
روحي مجروحة بالضلال
أكلت البعوض والقُمَّل والذباب
عسى أن تنكسر رحى نفسي الخرسانية
شربت من مياه السواقي

والينابيع
ودرت خلف سواقيك المعطلة لألف عام
أحذيتي أكلتها العتة
وكسّرها النسيان
نظّاراتي فقدت شمسها المطلة على اللغة
وانكسرت فوق صندل الدخان
وأوردة المقهى
سألت كل عابر سبيل وشيخ طريق
كان الظل يضحك مني و يستهزئ بي
ويتهمني بالجنون والسفه
أين أنت يا صانع الفخار والعظم
أين أنت يا حابس اللغة في المحابس
ومخارج الحروف
و يا كأس الأناناس
على شجرة الفرولة
تعال
تعال إذن نتصالح
أنت تأخذ مني ما تريد
الجسد
والعظم
المعي والأوردة
الدماء والأطراف
الأصابع والحلقوم
حتى الروح تأخذها مني بلا منازع أو مبرر
وأنا لا يتبقى لدي سوى البراز
واليأس
في صحن روحي الوسخ
أطبخه ليل نهار لآكل منه

أو أشربْ !!
شجرة صغيرة أنا
فوق سفح جبل تسكنه الريح
فماذا تأخذ الريح مني
لماذا تأكلني الديدان
والصراصير
وتختبئ في أرض روحي الخفافيش
والزواحف
أنا تعبت منك
فلا تتركني على الطرق
مثل كلبٍ ميت
حبة فرولة أنا
فلماذا يداك تفعصاني
اسكن
اسكن إلى جواري أيها الماندولين العجوز
فأنا تعبت من الغناء
واليأس!!

صورة فوتوغرافية
لماري كفاديا 1901-1990

(1)

امسكوا القمر من رقبته
حلقوا جيداً فوق النسر
انكشوا الأرض بالأصابع والمحاريث
بللوا الدمع بالماء
ففي عين الشمس
توجد ضحكة القمر
المنعكسة !!

(2)

في فستانها بقعتان من الزيت
وعلى شفتيها الكرزيتين مجموعة من الرتوش
التي تركها جورج حنين بالأبيض
والأسود
من خلف الستائر و الأبقار
وفي الغرفة التي تربى فيها العصافير
والقطط
ثمة شهرزاد
وتحكي عن النول
ونوارج القش
والبقع الرملية التي خضبت
قلب المحيط.

(3)

من هذه المرأة
التي تسكن بمفردها في حي الزمالك
وعلى الجدران ترسم طير الأبابيل
والحجارة التي سقطت من
فم الرب
بينما تعزف على ستارة الوحدة
أراجيح النسيان
والموت
ولا تكتب عن الأمل بغير ضحكة مراودة
فإن لها حبيبًا يسكن في الأعالي
وفي كل صباح يأخذ سيارته الفولكس واجن
إلى قناطر إدفو
ليصطاد لها سمكة
بعين واحدة !!

(4)

في كل مساء تمشي على النيل
وهي تحدق إلى الأهرامات
التي صعدت إلى الزمن
على سقّالات من فسفور
ومواويل
وهي تهتف للكراكي
وأبي قردان
وسحليات الراعي الصالح
وقطط السيدة زينب
وباب النصرْ
أنتم أيها الرفاق
أنتم يا من هناك
ماذا عن التاريخ الذي يتبختر في شارع المعز لدين الله الفاطمي
وبركة الفيل
وحي الخرنفش
وأين ترك الزمن أزياءه
ومفاتيحه
هنا
أو هناك
في حي المغربلين
والصاغة
وباب زويلة
ولم يعد يعبأ بكل أولئك الغزاة والقتلة
الذين جاءوا على رقعة شطرنج
من كل فجّ
وقد لبسوا الجلابية المصرية
والعمامة الخضراء
وأخذوا يدورون في الشوارع

والأزقّة
كأنهم مشايخ الطريقة
أو يفتشون عن القرافة ليُصَلّوا هناك
صلاة التراويح
بجوار الملائكة .
(5)
ماري كفاديا
وضعت وردة على صدرها
وقالت للربيع اجلس
اجلس أيها الربيع
حتى أعد لك العشاء
وأخبز لك فطيرة من زهرة
عباد الشمس
كي لا تتأخر عني كل يوم!!
(6)
ماري كفاديا
التي ماتت من الوحدة
في غرفة إنعاش وضعت وردة وحيدة من بسنت النيل
وعلى سريرها المصنوع من الكتان والليف
كان يرقد توت عنخ آمون
وهو يضحك للجميلة كليوباترا
بينما راحت درية شفيق
تغزل أغنية من السنط
.. والكافور
للجميلة هيباتيا
وهي تقول للقمر
في كل ليلة عليك أن تمر من هنا
لا تتأخر
أرجوك

تعبنا من الظلام والخوف
هيباتيا المرأة
التي أغلقت مدرستها الوحيدة
في الإسكندرية
في وجه الآب
والابن
والروح القدس
بعد أن تركها القساوسة للكلاب والقطط في الشوارع
وسحلوها
ومثلوا بجثتها
من أجل ابن الرب البالغ الراشد
يسوع المسيح
رئيس عصبة الزيلوت الأمهر
وعقيدة التثليث
التي لم يعرفها كهنة آمون بعد !!

(7)

المرأة التي قالت لزوجها
– محمود رياض وزير الخارجية الأسبق –
وبعد أن دفنوها في مقابر الصدقة
إنني أعيش بقَدَر مسرحي
المرأة التي كانت عدوة المسيح وأكاذيب الحواريين العتاة
دفنوها في مقابر الصدقة
ولكن الكلاب راحت تنهش لحمها
وهي تصعد إلى الرب
فوق سلالم من أرجوان
وبنفسج
وهي ترسم شارة
الصليب
على رجاء القيامة.

من النافذة خلف السماء الواسعة

أنت سمكة
وأنا صياد وأقف على الشط
في يدي صنارتي
وبيننا بحر
وأمواج
وقواقع
دائمـًا ما أفكر فيكِ بعمق
وأنت تنظرين إلى من تحت الماء
ومن خلال جلابيبك التي بقعتها الشمس !!
في كل يوم أذهب إلى نفس البحر
وفي أصابعي نفس الفكرة
وهي أن أدع صنارتي تصطادك أنتِ بالذات
يا بحري الذي يمتلئ بالذهب الحار والأساطير
لم أعد أعبأ بالصيف
ولا أهتم كثيراً بثلج الشتاء
ولا أبحث عن أي بحر آخر لأقيم فيه شعائري
وأؤدي طقوس صلواتي
التي أرهقها التسكع والنسيان
على شطوط الذاكرة الخربة
للملح
فقط
صرتِ أنتِ كل شيء
وبحرك هو الغابة
يا سمكتي الذهبية
عينك تفلت من الشص
وقلبي صار أرجوحة
لعصافيرك التي تنطلق من كل صوب .

عن الجنرال

قلبه ممتلئ بالشقوق والكلاب الضالة
عيناه مفرزتان من دم
كفه أصابع من سرطانات ومشانق
في عضلة القلب تسكن المقاصلْ بدلاً من الدم والأوردة
على طرف لسانه تقف ذبابة كهربائية
ويقال لها الموت الأحمر
خطواته على الأرض منجنيقات
ومذابح
في ثلاجته الأوتوماتيكية ترقد رؤوس أطفال
وأكباد أقمار
شرابه الوحيد كان من الدم الطازج
وجمجمات السلاحف
هذا الجنرال الأحمق لا ينام إلا على صوت الخنازير
وقطط الموسيقا
آه من صندله المصنوع
من أرغفة الشراشر
أنه لا يعرف القمر
فقط يصلب الليل
على سن إبرة
هل رتب المغنى الجوال منجله الباذنجاني
على سُلم الموسيقا!!

عزلة القمر

في مثل هذه الليلة أيضـًا
أريد أن أغني
ما الذي يجعل القمر مقروراً
وفي هذا الجزء

من فستانك
من يقطف شعر تلك الوردة
من على حصيرتكِ
أيتها المرأة لا تجعلي السماء تبكي في بئر روحي
شفتك السفلى برتقالة مشروخة
سنديانة وتقع في الأسر
لا تشغلوا بالها بالليل
فالقمر نفسه في عزلة.

إعدام سقراط

سألوه حقـًا إن كان يؤمن بآلهة أثينا
أم لا
وماذا عن كاهنة دلفي التي تقول
إن الفضاء ما هو إلا قطع من زجاج مكسور
ومكعبات من اللذة
وكل تلك المرايا والأخاديد التي لا نهاية لها في
الـ هناك
والتي تملا الفضاء الغويط بالثقوب السوداء من أوله إلى آخره
وأن السماء – في الجوهر – تمتد إلى ما لا نهاية
والزمن يتمدد في اللامكان
وأن الصيرورة في الحقيقة ما هي إلا الإحساس الحي
واللاممسوك للوجود الفعال
في الفعل الإنساني
فاذا ما انعدم الوجود نفسه في لحظة ما من الزمن
انعدم الزمن بالأساس
وأصبح الرمز الذي يشير إليه الزمن
والمرموز إليه في نفس الوقت
هو الصفر

الصفر الكبير الواضح
الذي يتوسط الدائرة من أقصاها إلى أقصاها
ويربط ما بين أجزائها المنفصلة والمتصلة
حيث كل جزء من أجزاء الدائرة
هو عنصر حي وله وجود محسوس
في كل تلك العناصر المتموجة والفعالة
في قلب كل تلك الدائرة
ولا يمكن للدائرة أن تتم إلا به
فإذا ما انعدم هذا الجزء أو فُقد
انعدمت الدائرة بالأساس
وكأن لم تكن أبداً
ولم يعد هناك سوى العدم المحض
ذلك الخفاش الكبير والوطواط الأعمى الذي يسيطر
على نقطة البدء
وحتى خط النهايات
إذ ذاك تذكر سقراط الرحلة الوحيدة والمثيرة في حياته
والتي قام بها كجوّالٍ راسخٍ يحمل بقجته على كتفيه
وعصاه في يده
إلى مدينة الإسكندرية
حيث قابل هناك علماء اللاهوت
وأساتذتها الكبار
في الفلك
والهندسة
وعلوم الضوء
والكيمياء
والتحنيط
وفن الرسم

داخل المعابد والكهوف
وهناك وفي بيتٍ من الآجرّ بجوار فنارة الإسكندرية
حيث كانت تسكن هيبولينا
تلك اليونانية الشقراء التي علمته الأسس المعرفية البحتة
للجمال والهرمنيوطيقا وقالت له:
إن الجمال في الحقيقة هو إثم زائف لشيء لا وجود له
وإنما يكمن في الذات الناظرة إلى الصورة
وهو معنى لا مبنى
لأن كل شيءٍ زائل وإلى نقصان
والنقص هو الأساس الوحيد للكمال
وأن العدم هو الرمز الوحيد للصيرورة
هيبولينا تلك الفاتنة اللعوب التي قابلها آلاف المرات
على نفس الدكة الخشبية
وفي نفس البيت من الآجر والقش تقريبـًا
الذي يطل على الميناء الذي يمتلئ بالكراكي
وطيور أبي قردان
والأغربة التي ترفرف هنا
أو هناك
على صواري السفن البائدة
التي كانت تأتي من القسطنطينية
ولواء الإسكندرونة
وأرمينيا وآسيا الصغرى
وأذربيجان
وهي محملة باليونانيات الأسطوريات
وذخائر المعرفة
والحبشيات اللواتي كن يعملن في الدعارة الرسمية بدون أجرة تقريبـًا
وأن ما تعلمه هناك على أيدي الكهنة المصريين

وعبدة الصفر
لم يكن أقل كمالاً على الأقل من الواحد اللانهائي
والذي يسكن في المتعدد
ويقيم فيه
فيما الحارس اللعين ساليناس قد أخذ يطعنه بالخنجر في خصيتيه
وراح يطفئ الشموع المتناثرة الواحدة تلو الأخرى والتي تضيء عتمة السجن
وهو يصرخ في وجهه
بأن يشرب البقية الباقية من الكأس
لكي تنتهي كل هذه المهزلة اللاإنسانية التي أقلقت أبناء أثينا السوداء
وجعلتهم شيعـًا وطوائفَ
وأن عليه إن هو أراد أن يخرج من هذا السجن اللعين
أن يستمع إلى كاهنة المعبد المقدسة
التي أخذت الحكمة رأسـًا من فم الآلهة
ومن دون واسطة من أحدٍ
والتي أباحت الكافة للكافة
وجعلت المدينة الغراء ترقص وتغني
وشعر اليونانيون إذ ذاك بأنهم في عيد ميلاد دائم وبلا هموم أبداً
ولم يعد يقلقهم الموت في شيء
أو تزعجهم فكرة العدم الملعونة هذه
إلا أنه وفي هذه اللحظات
وقبل أن يتجرع القطرة الأخيرة من الكأس قال
كل مدينة تخترع آلهتها المقدسة بنفسها
سواءً كانوا من الحجر
أو من الطين
وتجد من الحجج والمبررات
ما تقنع به حتى الكلاب والقطط
وأبناء الشوارع

واللقطاء
على أن هذه الآلهة هي الصحيحة والمعبودة الوحيدة بحق
وأن غيرها من الآلهة هي الزائفة والعدوة
انظر يا أفلاطون
كم من المحاريث قد حرثت هذه الأرض
كم من الأنبياء الكذبة
والسحرة
والعرَافين
وضاربي الدفوف قد مروا من هنا
كم من المجازر والدماء
قد سُفكت فوق كل هذه الأرض
من أجل الآلهة
وكاهنة المعبد الشرموطة هذه
وأضاف قائلاً:
الصورة تكمن في المرآة
ولا تكمن المرآة في الصورة
وما نحن – في النهاية – سوى المرآة التي تعكس الصورة
فإذا ما انعدمت تلك المرآة انعدمت الصورة
وإذا ما انعدمت الصورة فلا معنى للمرآة
بالأساس
وأخذ يتجرع السّم رويداً
رويداً
إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة
وهو يقول:
يا لها من حياة
و يا لها من صور
الحقيقة متعددة جداً يا أفلاطون!!

طنجيس

إلى محمد شكري
ومحمد أحمد بنيس
وخالد الريسوني

برج البارود
الديوانية القديمة
برج الحاجوري
ساحة السوق الداخلي
جامع القرصية
مقهى الحافة
تلك كلها كافة المرايا
التي تحاصر طنجة الواطئة الحارة
والمستسلمة لشهواتها الداخلية
في فندق رمبراند
طنجة
التي يملؤها الأمازيغيون
والأعراب
من كل ناحية وهي تنظر إلى الأندلس العتيقة
وقصر الحمراء
بعين الماء
فيما أبو عبد الله الأحمر
يجمع نساءه
وقواد جنده
ويلقي بهم إلى المحيط
بينما محمد شكري يشرب حشيشته الرائقة
ويجلس متأرجحًا
بين جبل طارق
ومقهى طنجيس

وهو يقول
نهار آخر ضاع مني
فلماذا تتركنا هذه المرأة وتغادر إلى بساتين
سبته وميليليه
ومرتفعات شفشاون
وتنام في شوارع تطوان ومكناس
وتشلّح هدومها بالكامل
في أزقة الناضور
وهي تتسول الشمس في القنيطرة
عاريةً وحافية
وماذا أصنع أنا بكل تلك المراكب التي تعبر بعيداً
عن باب البحر
ومقبرة ابن بطوطة
ومدافع البرتغاليين.

الأرجانة

إلى
نعيمة زايد

فوق رأسها وضعت قبعتها الجلد البنفسجية
وشالاً من الحرير الأحمر
وهي تمسك بابتسامتها المشمسة بين يديها
فيما تكلم الله جهراً
أو من وراء حجاب
وتترك لعصافيرها الملونة
أن تنام هادئةً على المقعد خلفي
لسيارتها الأوتوماتيكية
فوق أرجوحةٍ
من شمسٍ متفرقةٍ

فيما هي تكتبُ قصيدتها البكر والتي تشبه جبال الأطلس
على ورق من زهور الصباح
وفي المساء تنام ناعمة
أمام جامع القرويين
أو باب الماكينة
وهى تغنى لعدد هائل من عشاقها اليتامى
أيها الله
أيها الرب
يا ساكن السماوات العلا
أيها الجالس هناك على العرش
وحولك المقصورات في الخيام
والحور العين
لن نغفر لك أبداً كل هذا اليأس
الذي تريقه فوق شوارع فاس
وعلى أبواب طنجة
الواطئة الحارة
التي تأخذ البحر بين يديها وتنام
على ورقٍ من اللازورد
مثل عروس
في ليلة الدخلة
ولن نرتكب أبداً حماقة الانتظار
على مضيق جبل طارق
أو في شوارع طريفة
ولا في أزقة ميليلية
أو سبتة
لنركن زهرة يابسة قد نسيها الزمن
في مقهى طنجيس
أو فردة حذاء لمحمد شكري
ولا طاقية ابن خلدون

أو جلابيته المعلقة
على سقاية النجارين
فيما أبو عبد الله الأحمر يبكي أمام أمّه
الملطومة
فوق مئذنة عمياء
من مآذن تطوان
وهو يلقى بنسائه الأندلسيات
وهن يضربن بخُمُرهن
على جيوبهن
مثل أكوم من القمامة
على باب قصر الحمراء
ونافورات غرناطة المتلألئة
وإنما سنأخذ بالغناء
– وطيلة كل هذا الليل البئيس
من التعب والأسى –
لكل هذا العدد الهائل من طيور النوارس
المغادرة
وطيور البطريق التي تهبط من الأفق
كالأرجوزات
كما لن نغفر لك أبداً
كل هذه الحياة التي تضج
بالخنافس
وأسماك القرش المتوحشة
والتماسيح
إلى أن تكنس بمكنستك الهائلة
كل هذه الجيوش الجرارة
من التماثيل
والنمل الأبيض
والذباب

والبعوض
والقمّل
وكل أولئك الأعراب
الذين جاءونا من الصحروات الجهنمية
فوق جمالهم المتهالكة
وبغالهم الجربانة
بكل تلك الأكاذيب المطاطية
وصلواتهم البطالة
عن الله
على حصيرة من خنفساء
معقوفة
لكى ندخل الجنة من الباب الخلفي
للمحيط
في انتظار أن تفتح لنا الأبواب الأخطبوطية
لمدينتك العاقر
عين اليقين
على أمل أن نلتقي بك في يوم من الأيام
في أحد الطرق الجانبية
لمملكتك التي لا ينام فيها أحد خالص
والتي تسكن فيها بمفردك
إلهنا اغفر لنا خطايانا
التي ارتكبناها بعيداً
عن الجمال
والشعر
نعيمة
يا حمامة الله
ماذا أفعل أنا الآن في باب مكناس
أو عين عتروس
وأنا أشرب اللبن الرائب

وأطارد نعجة سائبة
وفراخ الماء
في عين السبيل
وعلى باب أبي الجنود
وأمام جامع القرويين
وضعت سلتي
ونمت !!

صورة على الجدار

إلى
محمد رمصيص

هذه الصورة حتمـًا ستفقد الروح
أو ستقف شاهدة على الجدار
فمرة ذهبت بها إلى الهند
واكتريت عربة راكشا
ومرة ذهبت بها إلى طشقند
وعشقت امرأة أفخاذية
ومرة ذهبت بها إلى فاس
وفى طنجة أخضعت الشمس لعملية جراحية
وأخفيت النجوم في سراويلي
وأنا على سرير امرأة يقال لها فاطمة الزهراء
كانت تشبه الأورجازم في تنوعاتها
وهي بملابس الإحرام والنوم
إلى أن رأيت الله جهرة
لا من وراء حجاب
وقال لي من أنت
قلت أنت
وأخذت ألاعبه الحجلة وأحكي له

الحكايات إلى أن انتصف الليل
وعند الفجر تركني وغادر
وفوق سريري خلف وراءه
دمعة منكسرة
فماذا ستفعل صورة على الجدار
مثل هذه
لرجلٍ ظل يكتب الشعر
إلى أن مات؟
وماذا سأترك لأبنائي غداً
صورة معلقة على الجدار
ورقة صغيرة تنتحب
طائر يبكي في قفص
سجارة تشتكي من الوحدة
أزرار قميص تتآكل
أو قصيدة في مستنقع
يا الله
سامحنا على كل هذا الشعر
الشر
الذي لا يساوى خنفساء جاحدة
فوق رصيف مهجور؟؟

برج مولاي عمر

إلى
مريم البقالي

(1)

سنستعمل معـًا نفس الطاقية التي كان يستعملها ابن رشد
وهو يقف على شاطئ الأندلس العتيقة
فيما – هو – يخلع نعليه على باب البيرة

وباب أبي الجنود
وساحة البيازين
وينظر إلى قصر الحمراء بعينيه المبقعتين بالدم والتوتياء
وكوفيته التي اشتراها مؤخراً من أحد الموريسكيين اليهود
وسنقف معـًا على باب الماكينة
فربما يمر أحد الخبازين لنشتري قطعة من الخبز المحروق
– فيما كنت أخبئ روحي النفاثة في ذيل فستانك المزركش
خشية الحسد
والشر –
لنجلس معـًا وذات ظهيرة غاوية على باب القرويين
أو تحت سقاية النجارين
لنقرأ معـًا صورة النجم إذا هوى
أو آية الكرسي
وسوف نتتبع كذلك الشيخ محيي الدين بن عربي
في آخر فتوحاته
وهو يطوف على جمله الأعرج الكفيف
في شوارع فاس
ليقابل هناك ابن خلدون وهو يدون مخطوطاته
عن العصبية والدولة
أو ليتسول لقمة ضريرة
لقبرته التي خبأها بعيداً عن شوارع المرية
وحارات قرطبة
وجبال البيازين
فيما هو يبحث كذلك عن الله بين الكاف والنون
وينام تحت عريشة من الأوكاليبتوس
التي لا تظلل إلا عورته فقط
وفيما هو يتذكر باب الرملة
وضِياع عين الدمع
ودير القديس خيرينمو

وشوارع نهر الشنيل الخالية
من المقصورات في الخيام
والحور العين
ويترك فصوص الحِكَم
وكتاب الفتوحات
تحت أقدام كل عابر السبيل إلى مكة
على باب التوابين
مريم
أيتها النبية البتول!!
من منا سيتذكر الآخر أولاً
أنا
أم أنت؟
أم تلك النجمة التي استطاعت وبقوة غادرة
أن تقبض على آخر سمكة في المحيط
وحقها التاريخي في البحث عن وحدة الوجود
والعلاقة ما بين الذات والذات
أنا
أم أنت ؟
أم ذلك الزمن الضرير الذي يحمل فأسه العدوة
على كتفيه
وبيديه العنكبوتيتين يقطّع وبضراوة بالغة
كافة الأوردة والشرايين
التي تنمو وبغزارة على كافه الجذور التي نقيم فوقها شرائعنا المنحوسة
ورایاتنا الخفاقة والتي تربط ما بين دمي ودمك
وكل خلية من جسدك الذي يزهو حتى على الصورة
ويرفرف عاليًا فوق الفوتوغرافيا
ولا يترك على الأرض سوى رائحة الذكرى
التي تشبه حفيف الملائكة
مريم

من منا سيقطف حليب الفجر الصافي أولاً
ويمشي على الماء
ودون أن يبتل حتى ثوبه العريق
أو يرف له جفن
أنا
أم أنت ؟
مريم
من منا سينام واضعـًا الشمس في يمينه والقمر في يساره
فيما هو يخبئ النجوم بين إصبعين من أصابعه الرنانة
ويلقي بها إلى الفقراء
والمعوذين
الذين يمشون على الأرض هونا
ويحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف
من منا سيحمل سفينة نوح بين كفيه
ليعبر المحيط مرة أخرى
إلى طريفة
ومياه نهر حدرّة
ذلك النهر العجوز الذي ينبع من عين الكوثر
ويقف خاشعا على أبواب فاس
وهو يحوي بين رماله ذرات من الذهب الخالص
وكما يزعم الموريسكيون القدامى
أن تيارات الماء تحملها من تبة الشمس
الكائنة هناك
وراء جنة العريف!!
مريم
أيتها النبية البتول!!
كنت أمشي في شوارع تطوان تلك الحمامة البيضاء
التي ترفرف على صدرك في صباحات العيد
والصوم الكبير

وعلى أطراف ميليلية
وأتذكرك وأنت تنظرين إليّ
بعينيك الشهوانيتين اللتين تعبان الوحدة
من عين واحدة فقط
هي عين النعيم
ولا تتركبان إلا من كلمة واحدة فقط
هي الله
مريم
أيتها النبية البتول
صوتك يتسلل إليّ عبر منافي النسيان والزمن
وحتى من بين مسام الأرض
وسقوف الروح
وصفحات التاريخ المجهولة والمرئية فيما بين الكاتدرائيات
ومسالك البلدان
وعبر صفحات التاريخ المطمورة
وحدود الأنطولوجيات
والجغرافيا
فيما صوتك الذي يشبه إشعاع الذات وإيقاع الزمن يخترع الفجر
في عز الظهيرة
فقط
انظري إليّ
كلميني
وأنا أضمك إلى صدري
ونحن نطارد الفراشات والنحل
يا غابة السنديان
والمرمر
المجد لك في الأعالي
وعلى روحك المسرة
فقط أرجوك

اطلقي فراشتك الخضراء
لتحط على غرفة نومي!!!
(2)
أضحك فيمتلئ حقل الضوء بالعصافير
أبكي فتقف السماء شائخة وعلى قائمتين
أكلم حبيبتي
فتنفجر الينابيع في الأرض
اسرقي شجر الضوء مني أيتها الرملة
كلمني أيها العصفور الضرير
خذ بناصيتي أيها الفجر
المضلل
لا ليس خطوي هو الذي يبتكر السماء
لا ولا حتى جلابيبي هي التي تكشف عن حقيقة المجاز
وتكتشف خيانة اللغة
جبينك كأس مدلل
وأنا أموت من العطش
ثمة محاريث وتقف على حافة أرغفتي
وبيوتات وتنام في العراء الطلق
وتحت مخداتي
زيني جسدك للهو أيتها الوردة
الليلة سوف يكون عندنا ضيوف من الملائكة
والخبازين
وسوف يقف الله بنفسه ليوزع الخمر
على المصطافين
في جنة العطش هذه
مائدتك تسع السماء والأرض
وليس عليها من طبقٍ فارغ سواي
كان الله في عوني أيتها الملكة
أنا العارف الوحيد

في جنتك الشوكية هذه
والمكتظة بالفراشات
والنحل !!
(3)
سأنظف البيت كما ينبغي
وسأنعسُ أمام شمس ضئيلة توشك أن تنفجر
أو حتى تخرج من النافذة
وسأجمع بعض الفراولة من الحكماء
والفلاسفة
وطبقات الشعراء المأفونين
وأُشعل فيهم النيران
هؤلاء الشعراء الكفرة الذين توضؤوا
بدم اللغة
وساروا يحملونها على الأكتاف وإلى الأرصفة
ليبيعونها كقطعة خردة
أو أنبوبة بوتاجاز
لقاء عملةٍ معدنية مزورة
أو وظيفة سائبة في دورة مياه عمومية
وسأنسى أنني وذات يوم صائف
قد ذهبت إلى البحر
من أجل أن أعثر على رأس هيباتيا
أو يوحنا المعمدان
أو حتى فردة حذاء قد تركتها الجميلة كليوباترا
كاسطرلاب أخير على ناصية الزمن
على رصيف الإسكندرية الخالي من الوطاويط والنمل لا لشيء إلا لأن
حبيبها الإسكندر الأكبر
قد تفرغ لعباده آمون
وراح يسجد للشمس
من دون القمر!!

فيما هي – أقصد الجميلة كليوباترا –
قد أخذت تغسل له المواعين والبقع الرملية
التي راحت تظهر على السكك
وهو لا يكل عن المراودة
أو القتل
وراحت تدلك له قدميه المنملتين
اللتين أصيبتا بالتصدع
والقشف
من فرط ما أغرب طويلاً في البلدان
بحثًا عن تلك اللؤلؤة الخالدة هناك
في قلب الإسكندرية
كليوباترا
الأمر الذي كلفه عشرة آلاف قتيل
ومئات الآلاف من الجرحى
ناهيك عن المدن والبلدان التي احتلها والتي راحت
تغص بالجوعى
والعاطلين عن العمل
لقاء حلمٍ بسيط لكاهنةٍ
كانت تمارس البغاء وبضراوة تحت بئر السلم
وأمام معبد دلفي
نعم سأنظف البيت كما ينبغي
وأجلس على عتبة الباب
لأراقب كل تلك الكلاب الضالة
التي تعبر أمامي في السكك بحثًا
عن لقمة خبز
أو حتى إقامة جبرية
فوق أحد السطوح
ولن أفكر طويلاً في الواحد أو المتعدد
ولن أنشغل بما كان يشغل رأس الحلاج وهو على الصليب

في لحظة الموت الأخيرة
وماذا كان يتراءى له وهو يقول
اقتلوني يا ثقاتي
أو ماذا كان يعتور النفري
وهو يدون المواقف والمخاطبات كلمة كلمة وحرفًا حرفًا
وهو يصرخ بملء فمه
إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة
ولا ما إن كان الجنيد قد توصل إلى حقيقة الحقائق
أن الكل في الواحد
والواحد في الكل
ولماذا أشغل رأسي أنا بكل تلك الأسئلة الفارغة
العقيم
عن العدم والوجود
أو إن كان الصفر أسبق من الواحد في الحقيقة
أم أن الواحد هو الذي ألزم حقيقة الصفر
وماذا يشكل الواحد أو الصفر في نهاية الأمر
ولا ما إذا كانت السيدة مريم العذراء
عذراء بالفعل
أم تلك أسطورة المرايا
والمؤرخين
وماذا سيستفيد الجالس هناك على العرش من رحلة الهلاك هذه
والتي تبدأ بالوجود
وتنتهي بالموت
أو إن كانت هذه الرحلة هي مجرد معبر من صورةٍ
إلى صورةٍ
أو مجرد تغير في الشكل أو طريقة المعيشة
ألم يقل الجامعة أن الكل باطل
وقبض الريح!!
عليّ أن أقوم إذاً لأنظف ثيابي من البقع اللعينة من الزيت

أو لأجمع سلة البطاطس هذه من على المائدة
وربما سأبيع اللفت والخيار في سوق الثلاثاء
وسأقوم إلى كافة الاستعارات
التي تركتها على المائدة
كوسخ زائد عن الحاجة
وأطوح بها إلى اللاشيء
لأنها لا تساوي بصلة ناشفة
أو حتى تذكرة قطار معطوب
ربما يبول عليها كلب عابر
أو يلقي بها أحد المارة في سلة مهملات
لقاء ما أجرمت في حق امرأة ظلت تنتظرني على الرصيف المقابل
ثلاث ليال سويـًا
ولا تكلم الناس إلا رمزاً
وأنا أطارد قصيدة عمياء وهي تتنقل أمامي
من حانة إلى حانة
ومن مقهى إلى مقهى
إلى أن قبضت عليها من هدومها
وهي في غاية الوسخ والضيق
وربطها من رقبتها في شجرة نبقٍ
قديمة
آه يا حبيبتي
الأشعار كلها زائفة
إذا لم تأكل وتشرب معي على نفس الطاولة
ومن نفس الوعاء الذي أتناول فيه طعام إفطاري
أقصد خيباتي اللانهائية
فأنا ملك الخيبات بلا منازع
وأنا أخرج عضوي لكل ما في هذا العالم من جمالياتٍ
أو ميثولوجيا
ألم أقل لكِ

إنني سأنظف البيت كما ينبغي
وسأنسى كافة حيواتي السابقة
بكل ما فيها من شرور وآثام
وسأنعس أمام شمس ضئيلة توشك أن تنفجر في المخيلة
وأن تخرج من النافذة
وسأضع يدي في جيبي وأخرج حبة فراولة
لألقي بها إلى المارة
لعلهم يتذكرونني كأحد الشعراء العظام
الذين مروا من هنا
في تاريخ البشرية اللعين
والمليء بالجماجم والدم
هيباتيا
أين أنتِ يا حبيبتي التي ترقد هناك في المقابر
والتي سلخها القساوسة الكلاب
والنخاسون
ومزقوها على رصيف الإسكندرية شر ممزق
وتركوها هناك لقمة سائغة للقطط
والخنافس
من أجل يسوع المسيح
كل ذلك تحت أعين المارة
وعين السماء التي لا تنام أبداً؟!

الموريسكيه

إلى
إيمان زكريا

(1)

سنقتسم معـًا رغيف الخبز وكسرة الريح
وندور في الشوارع كالضالين

أنت تلعبين بالفراغ كالفراشات
وأنا أطارد النمل
والقطط
أربط قمصاني الى الهواء
وتنزعين ياقتك البيضاء وماضيك المشبع باليأس والوحدة
على فلقة بطاطس أو رغيف خبز
ربما يمر أحدهم ليرانا ويقول
عاشق
وعاشقة
أنفك جزيرة من العطر
وشعر رأسك برتقالات
كلماتك من ضحى الأغاني
وخطواتك على الطريق شجر
بللوا شعرها قبل أن تنام بالقبل
غسلوا نعليها بالشقائق
اكتبوا كلماتها على الجدران
والنوافذ
اقرؤوها لأولادكم في الصباح والعشى
وقبل أن يناموا
حبيبتي التي تغترف من الدمع طائرة ورقية
وتذهب بها إلى البساتين!
(2)
أمس
كتبت قصيدة لحبيبتي وغنيت
أنا لحبيبي وإلي اشتياقه
حبيبي مد يده من الكوة فأنّت عليه أحشائي
شعر حبيبي أبيض وأحمر ومعلم بين ربوة

شفتا حبيبي غابة من الكريستال
انف حبيبي برتقالة من السكر
خد حبيبي
نهر عسل
اسقيني خمرتك يا حبيبي فأنا وحيد في هذه البلدة
وقد أقبل على الليل وانطفأت النجوم
وهدّني التعب من السير في السكك
أصدقائي تركوني على الأبواب كاليتيم
أمس
أمي ذهبت إلى القبر ولن تعود
وأبي لم يعد يسمع عني
أخوتي تركوني مع الذئب في الفلاة
فالتقطني بعض السيارة
وباعوني بثمن بخس
كلماتي ما عادت تسمع من بعيد
على رأسي وضعت علامة على المحبة
وتهت في السكك
أخذني الحرس الطائف في المدينة وسألوني
عن رقم هويتي الشخصية
وعنوان بيتي
عن اسم أبي وأمي
فقلت لهم اسم حبيبتي كاملتي
صرابوني بالسكاكين والبلط فما تكلمت
مزقوا أوردتي بالشراشر
فما نظرت نحوك
لم أحدثهم سوى عن عينيك اللتين تسكنان في السماء
عن شفتيك المطعمتين باللؤلؤ

عن أغنياتها التي سرقها منها الغجر في الفجر
عن خطواتها التي تنبت شجراً
في السكك
وتطرح أيائل على الأرض
ولكنى لم أحدثهم ولا مرة واحدة عن خمرة
يديها اللتين تسيلان على الجدران
ولا عن كلمتها التي يحفظها الهواء عن ظهر قلب
لا ولم أحدثهم كذلك عن رغيف خبزها
الذي ليس له مثيل
ويطعم الآلاف من الجوعى
ولا عن رنة خلخالها الذي تصلح قاعدة للأغاني
من رأى منكم وجه حبيبي
فليدلني عليه
فأنا تعبت من السير خلفك في السكك
صباح الخير أيتها السيدة
عطرك يسمع من بعيد
أما أنت فمعجزة الرب
في هذا العالم!!
(3)
سأستقبل حبيبتي بفم باسم
وأحدق طويلاً إلى عينيها الجميلتين
وأقول لها
صباح الخير أيتها الوردة
اليوم خرجت إلى الأسواق لأشتري لك
سمكة الحرية
لتبتلعي الحوت الأكبر الذي في اليم
الحوت الذي يعشش عليك ويسرق خبز شفتيك

وحليب أيامك
سأسرق لك الزمن لتعلقينه حول رقبتك
كحلية تلبسينها ضد المرارات
والهزيمة
وسأدور على كل بيت في هذه البلدة ليعلقوا
صورتك كالأيقونة
وشارت زينة
وسأجلب لك من بنات فارس الاسطوريات
فراشة واثقة
لتنام تحت مخداتك في الليل
وفي الصباح تغني لك أغنية مرحة
عن الربيع
وتضع تحت رأسك النجوم
في الظلام الحالك
أيتها الحبيبة باللذات
ما أنت إلا الزمن تحمليه
في جلالبيبك
وبين قمصانك
وعلى أوردة روحك يقف التاريخ شاهداً
لي عليك
اسقيني خمرتك
فأنا تعبت من الملح
كوني شجرة ظلي وغابات حناناتي الرائجة
وأنا سأكون لك حارسك وعشبة الحق
أتركى لي يديك المطعمتين بالتوت البري
وحليب القبلات
وأنا سأكون لك النغمة الأخيرة

في سيمفونية
العالم
علميني أيتها النبية المقدسة
كيف تخترعين أساطيرك
وحكاياتك الملونة على الطرق
فشمسك غاوية وما لها من مثيل
في مثل هذه الساعة من كل يوم
يقف طائر الوحدة على شرفتي
ليحكي لي عن آخر أغنياتك
أنا إنائي فارغ
وسلة خبزي خاوية
وأنا جائع وأبحث عن خبزة وحيدة
في هذا العالم الشرس
ماذا سأقول لأمي إن هي سألتني عنك
يا حبيبتي
يا كاملتي
ما شكل جبينها قل لي
وما هو لون عينيها
وماذا تأكل بالنهار
وماذا تعمل في الليل
ارقدي إلى جنبي في سرير واحد
الأصحاب يسمعون صوتك وأنا انتظرك
عساك أن تمر
ارقدي إلى جواري يا حبيبتي يا كاملتي
عسى أن نغسل عن القمر بعض الأحزان
وعسى أن نقول للزمن توقف أيها المراوغ اللص
فما زال على الفجر بعيد

وأنا آخذ حبيبتي كاملتي
في حضني
أيتها الشمس اتركينا هنا على الأرض
لنغني أغنياتنا الجريحة التي تشبهنا معـًا
ولا يعرفها أحد سوانا
وأنت يا فراشة الرماد اذهبي بعيداً بعيداً
عن أغنياتنا الجريحة
فنحن ممتلآن بالأريج
والحدائق الملونة!